mngool.com

حركة الأرض ودورانها

في ضوء

حقيقة علميَّة أثبتها القرآن

بقلم

محمّد علي الصّابوني

عضو هيئة الإعجاز العلمي الاستشاري

برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

دار القلم

دمشق

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص. ب : ١١٣/٦٥٠١

المقـــدّمَة

الحمد للَّهِ ربِّ العالمين، منزلِ القرآن بروائع البيان، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب من أهل الإيمـان، كَشَف للبشرية عن بعض أسرار خلقه، وبدائع صنعه، في ملكه وملكوته، وأطلعهم على طرفٍ من أسرار هـذا الكون العظيم، الذي بهـرت آياتـه العقول، وحيَّـرت عجائبـه الفحول، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزات الساطعات، والبراهين الواضحات، وأعظمها «معجزة القرآن» وما حواه بين دفتيه من عجـائب الأخبار، وروائـع الحقائق العلميـة، وعلى آله وأصحابه، الغرِّ الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً.

وبعـــد:

فَيَحَارُ الإنسانُ وهو يرى ـ بأمِّ عينيه ـ هذه المكتشفات المدهشة، والمخترعات الحديثة العجيبة، التي تكاد تحيِّر العقول والألباب، بل تكاد تكون ضرباً من الأحلام، وخوارق العادات. . . المراكب الفضائية، الأقمـار الصناعيـة. . . الدوران حول الأرض. . الوصول إلى القمَر. . . إرسال

المراكب إلى بعض الكواكب. . إلى غير ذلك من الغرائب والعجائب، التي وصل إليها العلم الحديث.

ويتعجب المرء كيف استطاعت حضارة (القرن العشرين) أن تخطو هذه الخطوات الجبارة، في ميدان الاكتشاف، والاختراع، والتصنيع، وتأتي بما يشبه المعجزات، مع أن من هذه الأمم والشعوب، من لا يؤمن بدينٍ، ولا يصدِّق بكتاب، ولا يعتقد بوجود إلٰهٍ مدبِّر حكيم!!

ينظر المرء باستغراب، ويسأل بحذر: كيف يمكن لدولةٍ - مثل روسيا مثلاً - أن تتقدم، وتزدهر، وترتقي في ميدانِ العلم والصناعة، والكشف والاختراع، وتحاول أن تصعد إلى السماء، في برنامج «غزو الفضاء» أو تصل إلى بعض النجوم، والكواكب والمجرات، مع أنها تتنكَّر للأديان، وتكفر بالرحمن، ولا تؤمن ببعثٍ ولا جزاء، ولا نشور؟!.

ولكنَّ هذه الدهشة سرعان ما تتلاشى، وتذهب من خيال المؤمن، وهو يطالع كتاب الله العزيز، ويتأمل آياته البينات، التي تشعُّ سطورها بالنور والضياء، ولا تزال تكشف لكل باحث مستنير، حرِّ الفكر والضمير، عن الحقائق العلمية الدقيقة، التي أخبر عنها هذا الكتاب العزيز، «المعجزة الخالدة» الكبرى، لهذا النبي الأميِّ الكريم «محمد بن عبد الله» عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فالله تقدست أسماؤه ينبّهنا في كتابه العزيز، إلى بعض سننه الكونية في استدراج الطغاة المجرمين، حيث يُمدُّهم بأنواع الإمدادات: من العلوم، والمعارف، والخيرات، والأموال، والأرزاق، والمتاع، والسلطان، حتى إذا وصلوا إلى قمة الغطرسة والكبرياء، أخذهم خالق الأرض والسماء، أخذ عزيز مقتدر.

اقرأ معي بتدبر، هذه الآيات البينات ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١].

إنه التعبير القرآني المعجز، الذي يصوِّر أحوال المخدوعين بما هم عليه من ترفٍ وبطر، وانخداع بوسائل الرقي العلمي، حين يصل بهم الغرور إلى مقاومة الطبيعة، وغزو الفضاء، فيفتح الله لهم أبواب العلوم والمعارف، ويغدق عليهم الأرزاق والخيرات، ويمنحهم القوة والقدرة، في تسخير العلم إلى ما يَهْوَوْن ويحبُّون ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ واللفظُ - كما يصوِّره القرآنُ - واردُ على عمومه، في العلوم، والمعارف، والاكتشافات، والمخترعات، وأسباب التقنية الحديثة، وفي الرزق،

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٤٤ - ٤٥.

والمتاع، والسلطان، والعز، والجاه، تأتيهم متدفقة كالسيول، بلا حواجز ولا قيود، ثم تكون النتيجةُ بعد هذا الطغيان المادي والعلمي: الهلاكَ، والدمار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ أي حتى إذا فرحوا بما وصلوا إليه، من وسائل السطوة والقوة، وأسباب العزِّ والنصر، والتمكين لهم في الأرض، بهذه المكتشفات والمخترعات، أخذناهم بعذابنا فجأةً، فإذا هم قانطون يائسون من كل خير، قد لفّهم شبح الهلاك والدمار، بكفرهم وطغيانهم وضلالهم ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم.

وهكذا سنة الله في استدراج الشعوب والأمم، المنخدعة ببريق الحضارة الزائفة، يفتح الله عزَّ وجلَّ عليهم الأبواب، ثم يأخذهم بأنواع العذاب، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ - أي نزل بهم عاقبة الكفر والاستهزاء - ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

فلا ينبغي للعاقل، أن ينخدع بما عليه أهل الغرب

---

(١) سورة غافر، الآيات ٨٣ - ٨٥.

والشرق، من مظاهر الرقي العلمي والحضارة، فهي حضارة مادية متسلطة، هدفُها العدوانُ والطغيانُ، ونتيجتها الهلاكُ والخسران، فها هي أولى ثمرات هذه المدنيَّة الحديثة، الصواريخ، والدبابات، والقنابل الذرية، والهيدروجينية التي تحصد الأرض حصداً، وما ولَّدته هذه الحضارة من حروبٍ طاحنة مدمرة.

ولسنا الآن بصدد الحديث عن مآسي هـذه المدنيـة الزائفة، والحضارة المزعومة، ولكننا بصدد الحديث عن بعض الحقائق العلمية، التي سبق إليها القـرآن قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وجاء العلم الحديث كاشفاً عنها، مؤيداً لما ذكره القرآن الكريم «معجزة محمد» الخالدة، وحجته الباقية الدائمة إلى يوم الدين.

ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم كتاب هداية وإرشاد، وليس كتاب طبيعةٍ أو هندسة، ولا كتاب طبٍّ أو «جيلوجيا»، وغير ذلك من العلوم الكونية، ولكنه في الوقت نفسه لم يخلُ من إشارات عابرة خاطفة، عن بعض أسرار الكون، وبعض الحقائق العلمية، التي اكتشفها العلم الحديـث بعد جهدٍ مضنٍ من البحث والتنقيب، وذلك لتظهر «معجزة القرآن» المنزل على نبيٍّ أمي، لم يتلق علماً على يـد أحد من الأساتذة، ولم يدرس في مدرسة أو جامعة، وجاء بهذا الكتاب المجيد من عند ربه، فيه حقائقُ علميةٌ كونيةٌ، تبهر

العقول، وسأتحدث في هذه الرسالة الصغيرة الحجم، عن موضوع مهمٍّ له تعلُّقٌ بعلوم الكون، والمكتشفات الحديثة، ألا وهو «حركة الأرض ودورانها» من وجهة نظر القرآن، ثم أُعقبه بموضوع آخر، عن حكم وصول البشر للقمر، وأنه لا مانع شرعاً من ارتياد أقطار السماء، والوصول إلى بعض الكواكب والنجوم، فكلُّ ما في هذا الكون قد خُلِقَ وسُخِّر للإنسان، وأنه لا تعارض بين «الحقائق العلمية» و«الدين» نفسه، فالذي أبدع الأكوان، هو الذي أنزل القرآن، فلا يمكن أن يكون هناك تعارضٌ أو تناقض أبداً، بين القرآن والحقائق العلمية، المقطوع بصحتها، أمَّا النظريات التي تحتمل الأخذ والردَّ، والجدال والنقاش، فهذه هي التي يمكن أن يختلف فيها العلم والدين.

واللَّهَ أسأل أن ينفع بها السامع والقارىء، وأن يجعلها في حيز القبول، إنه سميع مجيب الدعاء.

محمد علي الصابوني

عضو هيئة الإعجاز العلمي الاستشاري
برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

حركة الأرض ودورانها

حقيقة علمية أثبتها القرآن

عصرنا الذي نعيش فيه عصر العجائب والغرائب.. عصر الخوارق والمدهشات.. لا تكاد العين ترى فيه إلا كلَّ طريفٍ وجديد.. ما كان مستحيلاً منذ قرون، أصبح واقعاً ملموساً في هذه الأيام!!.

ولا عجب في ذلك، فهو عصر المكتشفات والمخترعات، عصر الازدهار العلمي، والتقدم الحضاري، عصر الذرَّة وغزو الفضاء، عصر الأقمار الصناعية والمراكب الفضائية، عصر «التكنولوجيا» الحديثة التي تدهش العقول، وتحيِّر الألباب، بما فتح الله على البشرية من علوم ومعارف.

ويمكننا أن نقول جازمين: إنه عصر ظهور «معجزة القرآن» تحقيقاً لوعد الله العلي الكبير ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(1).

والآفاقُ: هي الأطرافُ والنواحي، جمع أُفُق، ومعنى الآية: ـ كما يقول المفسرون ـ: سنظهِرُ للبشر عجائبَ

(1) سورة فصلت، الآية ٥٣.

خلقنا، وبدائع صنعنا، في أنحاء السموات والأرض، في الشمس، والقمر، والنجوم، والأفلاك، وفي عجائب خلق الله في أنفسهم، في تكوينهم بهذا الشكل البديع، حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حقٌّ، أنزله عليك ربُّ العزة والجلال، أو لم يكفهم شاهداً على صدقك ـ يا محمد ـ أن ربَّك شهد لك بالنبوة والرسالة؟.

بدأ تعالى في الآية بذكر الآفاق، قبل ذكر الأنفس، لأن عجائب السموات والأرض، أعظم وأكبر من عجائب خلق البشر كما قال سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

غـزو الفضـاء

لقد غزا البشر الفضاء، وداروا حول «كوكبنا الأرضي» مرَّات ومرات، وأرسلوا المراكب الفضائية تستكشف أخبار الكون، وطافت هذه المراكب حول بعض النجوم، وأرسلت بصورٍ مذهلة، عن الأرض وما يحيط بها، وبعض الكواكب وما تتكون منه، وما يجري فيها من أعاصير ورياح، ووصل بعضُ روَّاد الفضاء فعلاً إلى القمر ومشوا عليه، ونصبوا عليه أعلاماً، وأتوا بشيءٍ من حجارته وتربته، ورآهم الناس رأي

(١) سورة غافر، الآية ٥٧.

العين وهم يُنزلون مركبتهم فوق سطح القمر، وقد التقطوا صوراً للأرض وهم فوق ظهره، وهي تدور، وتشرق وتغرب، كما يشرق القمر على أهل الأرض ويغرب عنهم.

رأوا من عجائب الكون ما لم يكن في الحسبان، كلُّ ذلك قد تحقَّق في هذه الأزمان، تحقيقاً لوعد الله عز وجل فيما أخبر عنه، من اطلاع عباده على بعض آياته، في هذا الكون العجيب.

ولو حدَّثك أحدٌ عن هذا قبل مائة عام مثلاً، لقلت عنه: إنه مجنون، يتكلم بالمستحيل، من الذي يستطيع أن يطير بين السماء والأرض بدون أجنحة؟ وأن يدور حول الأرض ويخرج عن جاذبيّتها، فضلاً عن أن يصل إلى القمر، ويجلس عليه ليتناول طعام الغداء، أو الإفطار؟!.

ولكنها الحقيقة العلمية تتراءى اليوم للعيان، فها هم رُوَّاد الفضاء يجوبون آفاق السماء، منهم من دار حول كوكبنا الأرضي، مرات ومرات، فيهم رائد الفضاء العربي المسلم «سلطان بن سلمان بن عبد العزيز» ومنهم من أنزل مركبته فوق سطح القمر، كروَّاد الفضاء الأمريكان، ولعلَّ الرحلات إلى القمر تتابع، ليرى البشر بأم أعينهم، آثار قدرة الله في هذا الكون الهائل، الذي لا يعرف مدى سعته إلَّا خالقه ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٧.

ولن ننسى رحلة «جاجارين» أول رائد سوفيتي دار حول الأرض، وكان أول تصريح له بعد عودته قوله: «لمَّا علوتُ في آفاق الفضاء، ودرتُ حول الأرض، بهرتني روعةُ الكون، فأخذتُ أبحث عن اللّهِ...»!!.

إنه صوتُ الفطرة ينبعث من داخل النفس، ليقرع أسماع الغافلين، المنكرين لوجود الله، ليثوبوا إلى رشدهم، فيوقنوا بأن للكون إلَهاً قديراً، أبدع الكون ووضع له النظام ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

عجائبُ الكونِ تظهر للأبصار

سينقضي العمر، وتبقى عجائب هذا الكون تشغل عقول البشر، بما أبدع الله في هذا الوجود، من دقائق الخلق والتكوين، وبما أظهر من آثار عظمته وجلاله في هذه الأزمان، ممَّا يحيِّر الألباب، ويُدهش العقول.

الكون كلُّه يسبح في هذا الفضاء الواسع، الذي لا يعلم مداه وسعته إلَّا خالقه، الكواكبُ، والنجومُ، والأفلاكُ، تجري وتدور، في حركةٍ رتيبةٍ منتظمة، لا يصطدم نجم بنجم، ولا يخرج كوكب عن مداره ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

(١) سورة صٓ، الآية ٢٧.

بِحُسْبَانٍ ﴾ أي بحساب دقيق منتظم ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ كلُّ الأفلاك تسبح وتدور. . . الشمس، والقمر، والنجوم، والأرض، والجبال، والبحار، كلُّها بأمر الله تسبح في هذا الفضاء ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وهي في حال جريانها ودورانها تسجد للّه، وتسبِّح بحمده، بلسان الحال أو المقال، فهي منقادة للّه الواحد الأحد ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ. . .﴾(١) الآية، وهي بهذه الطاعة والانقياد، حالها كحال الساجد العابد، الخاشع، الخاضع لرب العالمين.

الأدلة على دوران الأرض

لقد أصبح دوران الأرض حقيقة علمية مقطوعاً بها، مشاهدة بالصور التي بثَّتها الأقمار الصناعية، ولم تعد نظرية تحتمل النقاش والجدل.. رآها روَّاد الفضاء وهم في مركبتهم الفضائية، تسبح في هذا الكون الرحب الفسيح، تشرق عليهم وتغرب، شأنها كشأن سائر الكواكب، فصوَّروها حالة الإشراق وحالة المغيب، ولا يمكن للعاقل أن يكذِّب ما يراه بالبصر، لأن إنكار المحسوسات ضربٌ من الخَبَل.

ولسنا بحاجة أن نقيم الأدلة على حركة الأرض ودورانها بظاهرة الخسوف والكسوف، وظاهرة الليل والنهار، وتعاقب

(١) سورة الحج، الآية ١٨.

الفصول الأربعة، فإن تلك الظواهر دلائل علمية لا ينكرها إلاَّ جاهل مكابر، ولكننا سنكشف ما قرَّره القرآن، قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، في آياته البينات حول حركة الأرض ودورانها، مما يُدهش فكر الإنسان، ويجعله يقف خاشعاً خاضعاً أمام جلال القرآن وعظمته.

إننا نلمس في القرآن الكريم أدلة مؤيدة لما اكتشفه العلم الحديث، بل سابِقةً له في التحدث والإخبار عن هذه الظاهرة الكونية «حركة الأرض» التي اكتشفها رواد الفضاء في هذا العصر، وإليكم الأدلة مفصَّلة بعض التفصيل.

الدليل الأول

قولُ اللّهِ تبارك وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾[1]. فقد أشارت الآية الكريمة، إشارة دقيقةً لطيفة، إلى حركة الأرض ودورانها، للمتمعِّن في النصِّ القرآني المعجز - بنور العلم والبصيرة - المدرك لأسرار الكتاب العظيم.

ووجهُ الاستدلال بالآية الكريمة من طريقين:

الأول: إطلاقُ الظرف الزماني وإرادة المظروف، فإنَّ كلًّا من الليل والنهار ظرفُ زمان، ولا بدَّ لهما من مكان،

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٣.

والمكانُ الذي يظهر فيه الليلُ والنهارُ هو «الأرضُ» فلولا الأرض لما ظهر نور ولا ظلام، ولا حَدَث ليلٌ ولا نهار، تشرق الشمس وتغرب، فيتولد الليل والنهار، فجاء التعبير عن «الأرض» وهي المكان، بالظرف الزماني وهو «الليلُ والنهارُ» فكأنه تعالى يقول: وهو الذي خلق الأرضَ، والشمسَ، والقمرَ، كلٌّ في فلك يسبحون، أي كلٌّ من الأرض، والشمس، والقمر، يسبح في هذا الفضاء الشاسع الواسع.

ومما يؤيد ما ذكرناه أنه تعالى عبَّر بالخلق ﴿ خَلَق الليلَ والنهار ﴾ أي الظلمة والنور، والخلقُ لا يكون إلا للشيء الحسيِّ، الذي له جرمٌ محسوس، كالإنسان، والحيوان، والسماء، والأرض، ولا يكون الخلق للظرف الزماني، الذي يحدث بحركة أمور حسِّية، ولهذا غَايَر تعالى بين خلق السموات والأرض، وبين الظلمات والنور في سورة الأنعام، فقال سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (١). فعبَّـرَ عن السموات والأرض بالخلق، وعن الظلمات والنور بالجعل.

وإطلاقُ ظرف الزمان، وإرادةُ المحلِّ والمكان، معروفٌ في اللغة ومشهور، كإطلاق الصفة وإرادة الموصوف، والقرآنُ نزل بلغة العرب، وبالأساليب التي يتخاطبون بها،

---

(١) سورة الأنعام الآية ١.

استمع إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] فإن الرحمة صفةٌ لا يتصور أن يسكن بها الإنسان، أو يستقرَّ فيها ناعماً، ولكنْ لمَّا كانت الجنة هي مكان تنزُّلِ رحمةِ اللّه تعالى، أطلقَ ذلك عليها، فهو كما يقول علماء اللغة «مجازٌ مرسلٌ» من باب إطلاق الصفة، وإرادة الموصوف، ومعنى الآية: وأما الذين ابيضَّتْ وجوههم فهم في جنَّة اللّه هم فيها خالدون، وهذا ما قاله المفسرون جميعاً.

ومثل هذه الآية قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ ويُنزِّل لكم من السماء رزقاً ﴾ أطلق السبب وأراد المسبَّب، أي يُنزِّلُ مطراً هو سببٌ للرزق، ولا يقول أحد من العلماء أو العقلاء، إن القمح، والرزَّ، والبطيخ، والبرتقال، وسائر الفواكه والثمار، تنزل من السماء، إنما هو المطر الذي به حياة البشر.

الوجه الثاني من الاستدلال:

إن اللّه تعالى عبَّر عن هذه الأفلاك بصيغة الجمع فقال: ﴿ كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ولو كان الكلام عن الشمس والقمر فحسب، لذكرهما بلفظ التثنية فقال: «يسبحان» فدلَّ على أن الليل والنهار يسبحان أيضاً، ولمَّا كان المراد « بالليل

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٧.

والنهار» الأرض - كما أسلفنا - فإن المعنى يصبح، إن الله خلق الأرضَ، والشمسَ، والقمر، كلٌّ من هذه الثلاثة، يسبح في ملكوت الله الواسع، ويكون في ذلك إشارة دقيقة، ولفتة عجيبة بارعة، على دوران الأرض وحركتها.

ومعنى ﴿يسبحون﴾ أي يدورون كما نقله الحافظ ابن كثير عن ابن عباس قال: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة.

وقال مجاهد: لا يدور المغزل إلاَّ بالفلكة، ولا الفلكة إلاَّ بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به[1].

القرآن حكيم في مخاطبته الناس ٧

وقد يقول قائل: لماذا لم يصرِّح القرآن الكريم بأنَّ الأرض تدور، كما صرَّح بذكر الشمس والقمر؟.

والجواب: أن نقول: إن القرآن حكيم في مخاطبته للبشر، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾؟ فكلُّ ما جاء به القرآن في ذروة الحكمة والبيان، فهل من الحكمة أن يكشف القرآن للناس عن أمورٍ لا تتحملها مداركُهم، ولا تتقبلها عقولُهم، حتى يسارعوا إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٨٧.

إنكاره وتكذيبه، في عصرٍ لم يكن يعرف فيه الناس من أسرار الكون شيئاً؟.

لقد قال عليٌّ رضي اللّه عنه: «خاطبوا الناسَ على قدرِ عقولهم، أتريدون أن يُكذَّب اللّهُ ورسولُه»!!.

وقال بعض السلف: ما أنتَ بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلَّا كان لهم فتنةً. ولذلك نرى القرآن الكريم، لا يصادمُ المشاعر والأفكار، ولا يأتي بالغرائب التي تعارض المحسوس والملمْوس، وإنما يتحدث بما تتقبله العقول.

مثلٌ واضح على حكمة القرآن

خذ مثلاً بسيطاً على ذلك من وسائل الركوب، لو قال القرآن للعرب في تلك الأزمان: ليست وسائل النقل هي الخيل، والبغال، والحمير فقط، بل إنكم ستركبون في سيارات لا تجرُّها خيول، وستطيرون في الجو في طائرات نفَّاثة، بين السماء والأرض، دون أن تكون لكم أجنحة، وستدورون حولَ الكرة الأرضية بمراكب فضائية، لسارعوا إلى تكذيب القرآن، ولهذا السرِّ خاطبهم القرآن بأسلوبه المعجز، بما تتحمله عقولهم فقال: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1] وبهذا الأسلوب

(١) سورة النحل، الآية ٨.

الرائع من الدقة والبيان، هيَّأ القرآن القلوب والأذهان إلى ما سيتمخَّضُ عنه الزمان فقال: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من سيارات، وقاطرات، وطائرات، ومراكب فضائية، وغير ذلك مما هو من تعليم اللّهِ للإنسان، ولمَّا كانت هذه الأشياء من إبداع العقل، والعقلُ من خلق الله جلَّ وعلا، صحَّت نسبة الخلق إلى الله تعالى، لأنه هو الذي أمدَّ الإنسان، بهذه الروائع والبدائع، بما منحه من قوة، وعقلٍ، وإدراك، وفهم، استطاع به اختراع هذه المكتشفات، وإيجاد هذه العجائب ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1].

ولهذا السرِّ نفسه أطلق تعالى هنا الليل والنهار على «الأرض» التي هي مظهر هذه القدرة الباهرة، فلولا الأرض ما ظهر الليلُ والنهار، ولولا دورانها حول الشمس لما كان هناك نورٌ ولا ظلمة، ولا صيف ولا شتاء، ولا كسوف ولا خسوف، فسبحان من أنزل القرآن، بأبلغ صور الإعجاز، وأروع وجوه البيان، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب؟!.

الدليل الثاني

أما الدليل الثاني على حركة الأرض، فقد حكى لنا القرآن الكريم في سورة «يٓس» أن الكون الواسع، والفضاء الرحب،

---

(١) سورة طه، الآية ٥٠.

وما حواه من نجوم، وكواكب سيارة، كلُّها تسبح في أفلاكها، وبدأ بالأرض ينسلخ عنها النورُ، فتغرق في الظلام، كالشاة التي سُلخ عنها الجلد، فبدا منها اللحمُ والشحم، والعظام، وهي في حركتها ودورانها حول الشمس، تستقبل النور والضياء، ثم يلفُّها ويغشّيها شبحُ الظلام، فإذا الكون كلُّه غارق في ظلام دامس، كأن النور قد مُحِي وطُمِسَ، فلم يبق له أثر، اقرأ معي هذه الآيات البينات، المعجزات في بيانها وتصويرها: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ - أي كغصن النخيل اليابس - ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾. سورة يٓس.

ووجهُ الاستدلال في النصِّ القرآني الكريم، أن اللّه تعالى ذكرهُ، وجلَّ ثناؤه، قد تحدَّث عن الآيات الباهرات، في تنظيم هذا الكون، وتسييره بنظامٍ دقيق محكم، في غاية الدقة والنظام، فبدأ بذكر الأرض ذكراً صريحاً - قبل هذه الآيات - في قوله سبحانه: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ

وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾. تحدَّث في هذه الآيات عن مظاهر قدرته الباهرة في هذا الكون الفسيح، بأسلوب فيه إسهابٌ وإطناب، بدءاً من الأرض المجدبة القاحلة، ينزل عليها الماء فتدبُّ فيها الحياة، بأنواع النبات والثمار، ثم أعقبه بذكر الليل والنهار في مشهدٍ غريب، مشهد الليل ينسلخ عنه النور والضياء، فإذا الكون ظلام دامس، ثم مشهد الشمس الساطعة تجري بقدرة اللّه في فَلَكٍ لا تتخطَّاه، ثم في مشهد القمر يتدرج في منازله، حتى يصبح نحيلاً رفيعاً كأنه عودُ النخيل اليابس، الذي تقوَّس وانحنى، ثم ختم ذلك كلَّه بلفظٍ يدل على العموم والشمول، لجميع ما ذُكِرَ من الأرض، والشمس، والقمر، وهو لفظ «كلٍّ» المفيد للإحاطة والشمول، وأورد النصَّ بصيغة الجمع ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي كلٌّ من الأرض والشمس والقمر، يدور في فضاء اللّه الرحب، ولو اقتصر في الخبر على ذكر الشمس والقمر، لجاء التعبير بلفظ التثنية «يَسْبَحان» لا الجمع «يَسْبحون».

وبهذا الأسلوب البياني المسهب، يظن القارىء أن الحديث عن الأرض قد مضى وانقضى، بينما الكلام مترابطٌ منسجم، من البداية إلى النهاية، حتى يجيء الزمن الذي يكشف فيه عن الإعجاز العلمي، بسبق القرآن الخبرَ عن حركة الأرض ودورانها ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فهل رأيت

أروع من هذا البيان، وأبدع من هذا الأسلوب الحكيم في تصويره وتعبيره؟.

الدليل الثالث

ومن الأدلة على حركة الأرض، وأنها تدور وتسبح في هذا الفضاء الواسع، وأنها غير مرتكزة على شيء، بل هي كسائر الكواكب، تمسكها يد القدرة الإلٓهية، قولُ اللّه تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾[1].

ووجه الاستدلال بهذه الآية، أن اللّه قد أخبرنا بأن السموات قائمة بقدرته بدون عمد ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾[2] أي تشاهدونها بدون أعمدة، ولا دعائم، وأخبرنا أنه قد أمسك السموات والأرض عن السقوط أو الزوال، ﴿ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ فلو كانت مرتكزةً أو واقفةً على شيء، لما احتاجت إلى الحفظ والإمساك، فكما أمسك تعالى السماء بقدرته، أن تقع على الأرض، كذلك أمسك الأرضَ، أن تتيه وتسرح في هذا الفضاء، وأن تقترب

---

(١) سورة فاطر الآية ٤١.

(٢) سورة لقمان الآية ١٠.

من الشمس فتحترق، أو تبتعد عنها فتتجمَّدَ بمن عليها، وتنعدم الحياة فوق سطحها.

فالمسافة بين الأرض والشمس متوازنة متناسبة، الشمس تجري والأرضُ تدور حولها، بشكلٍ رتيبٍ منتظم، ولولا أن اللّه تعالى ثقَّلها بالجبال ليحفظ توازنها، لأصبحت الأرض كالريشة في مهبِّ الهواء، تجري بغير نظام، وتسرح وتمرح في ملكوت اللّهِ الواسع، ولكنه جلَّ وعلا الخالق الرحيم بعباده، أحكم خَلْقها، ونظَّمَ حركَتَها، وجعل بين الأرض والقمر جاذبية، لئلا تطغى البحار على البشر فتغرقهم وتهلكهم، كما جعل بين الأرض والمجموعة الشمسية نظاماً دقيقاً محكماً، في جوِّها، وغلافها، وجاذبيتها، وبذلك احتاجت إلى إمساك الإلّه لها، بقدرته التي أودعها في هذا الكون الفسيح.

مثال توضيحي

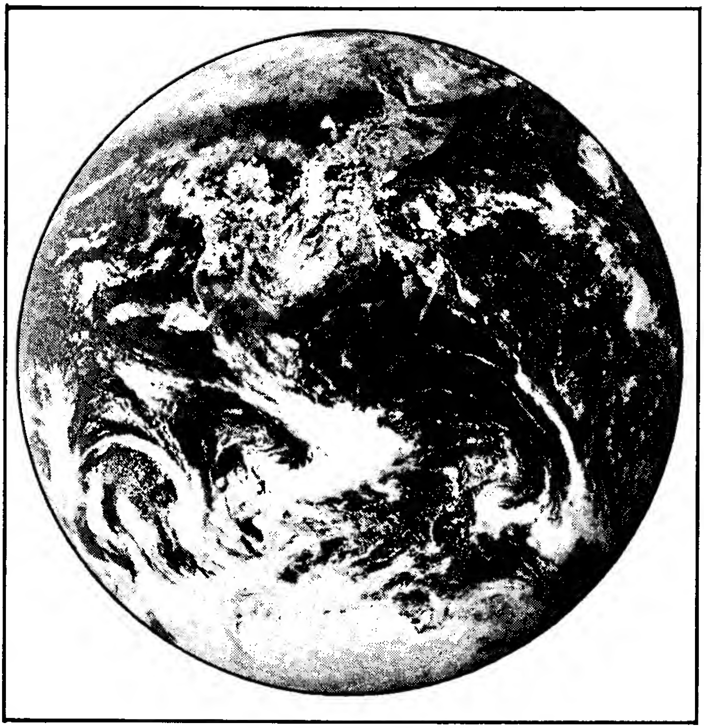
خذ مثلاً يوضِّح لك الفكرة: الكرسي الموضوع على الأرض، لا يحتاج أحدٌ أن يمسكه لك، لكنْ إذا أردتَ أن ترفعه عالياً عن الأرض، وتجعله في الهواء أو الفضاء مثلاً، فلا بدَّ من شيء تعتمد عليه، وإلَّا سقط على من تحته، فكذلك الأرض في ملكوت اللّه، وفضائه الواسع، أمسكتها يد العزيز الرحيم، وهذا ما يوضح لنا معنى قول اللّه العلي الكبير:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ أي يمنع بقدرته وبديع حكمته السموات والأرضَ من الزوال، وهو الذهاب والسقوطُ والوقوع ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ أي ولو زالتا عن أماكنهما ـ فَرَضاً ـ لا يستطيع أحد على إمساكهما، ولا على إعادتهما إلى مكانهما، ولكنه حفظهما بقدرته، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ أي حليم على العباد، لا يعجِّل العقوبة لهم، مع كفرهم وعصيانهم.

رؤية الكرة الأرضية من الفضاء

لقد شاهد روّادُ الفضاء الأرض، وهي تسبح في هذا الأفق البعيد، رأوها تشرق وتغرب، وتظهر وتختفي، تماماً كما تُشرق الشمسُ علينا، وتغيب، فصوَّروها في حالة الإشراق يبدو منها أجزاء، وصوَّروها قبل أن تغيب، رأوها رأي العين مكوَّرة مدوَّرة تسبح في الفضاء، لا ترتكز على شيء، ولا يمسكها شيء، إنما هي في هذا الفضاء الرحب، تمسكها يد القدرة الإلٓهية من السقوط والزوال، وتحفظ مسيرتها مع المجموعة الشمسية بواسطة الجاذبية الأرضية، التي خلقها اللّه في هذا الكون، بما يحفظ لها التماسك والاستمرار، إلى أن يرث اللّه الأرضَ ومن عليها وإليه يرجعون.

ولو أراد الله أن يقلب الأرض بمن عليها لفعل، ولكنه سبحانه البر الرحيم، الحليم الكريم، الذي آمتنَّ على العباد بهذا النظام الدقيق المحكم، بين الكواكب والأفلاك، والأرض والسماء، وكلٌّ شيء عنده بمقدار ونظام، كما قال سبحانه: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[1].



(١) سورة الحج، الآية ٦٥.

حركة الأرض من الآيات الباهرة

لقد جعل الله تباركت أسماؤه الأرض آية من آياته الكونية الباهرة، وجعل إمساكها في الفضاء مظهراً من مظاهر قدرته ووحدانيته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ فأيهما أعظم وأظهر في الدلالة والإعجاز، أن تكون الأرض واقفة، مرتكزة، ثابتة على شيء يحملها، أم تكون سابحة، دائرة في هذا الفضاء الواسع، كبقية النجوم والكواكب، دون أن تنقلب بمن عليها، وبما فيها من بحار، وجبال وأنهار؟ ودون أن ينهدم ما عليها من بيوتٍ ومساكن، ومصانع وقصور؟ أيهما أعظم في الدلالة على عظمة الخلّاق؟ وأيُّها أحوج إلى الإمساك، الثابتُ أم المتحركُ؟.

إن سير الأرض بمن عليها، وحركتها ودورانها في هذا الفضاء، بما عليها من الأثقال والرجال والجبال، لا شك أنه أبلغ في الدلالة على القدرة، وأظهر في الحاجة إلى الحفظ والإمساك، حتى يأتي اليوم الموعود فتنكفىء بمن عليها، فتختلط البحار، وتتزلزل الجبال، وتتناثر الكواكب، وتتهدم الدور والقصور، وحينئذٍ يدرك الإنسان سرَّ قول الله العلي الكبير ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

الدليل الرابع

وأما الدليل الرابع على حركة الأرض ودورانها، فيكاد يكون صريحاً قاطعاً في الأمر، وهو قول اللّه جل وعلا في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[1] ووجه الاستدلال في هذه الآية الكريمة، أنه تعالى عَرَضها في مساق التذكير والتنبيه على قدرته الباهرة في هذا الكون.

فإن الخطاب للبشر هنا في الدنيا، لأن الآية وردت بصيغة الخطاب ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ . . . ﴾ الآية بنصب الجبال بالبناء للمعلوم، فهو تعالى يخاطب البشر، يخاطب كل ناظرٍ، وكلِّ عاقل، يرى بعينيه شيئاً يدعوه إلى التفكر والتأمل، ومعنى الآية: وترى أيها المخاطب وأيها السامعُ، الجبالَ تظنها ثابتة في مكانها لا تتحرك، وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب، ذلك هو صنع اللّه البديع المحكم، الذي أتقن كل شيء خَلَقه، وأبدع صنعه على غاية الكمال والنظام، وهو سبحانه العليم بما يفعل العباد.

قال الإمام الفخر: وجه حسبانهم أنها جامدة، أن الأجسام

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨.

الكبار، إذا تحركت حركةً سريعةً على نهجٍ واحد، يظن الناظر أنها واقفة، مع أنها تمرُّ مرّاً سريعاً[1].

هل الآية تتحدث عن الدنيا أو الآخرة؟

وقد يقول قائل: إن الآية وردت في سياق الحديث عن الآخرة، وليست حكاية عن أحوال الدنيا؟.

والجواب: إن هذا القول بعيدٌ، بل نكاد نجزم بأنه خاطىءٌ، للأسباب التالية التي سنذكرها:

أولاً: اختلاف الصيغة عن سابقتها في التعبير، فهناك قال سبحانه: ﴿ويوم يُنفخُ في الصور﴾ بالبناء للمجهول، وهنا وردت العبارة بلفظ الخطاب ﴿وتَـرَىٰ الجبالَ﴾ بـالبناء للمعلوم أي وترى أيها المخاطب، الناظر، المشاهدُ للكون، الذي يرى بعينيه الجبال، تحْسبُها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب، ولو كان الحديث عن الآخرة لجاء التعبير «وَتُـرَىٰ الجبـالُ» بالبناء للمجهول، على النسق السابق، أي تُرى في ذلك اليوم الجبالُ، برفع الجبال لا بنصبها، لأنه يصبح خبراً لا خطاباً، فهذه المغايرة تدلُّ على أن الأمر هنا في الدنيا.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤/٣٤.

ثانياً: الجبال تُنسف في الدنيا وتتناثر قبل يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة، الآية ١٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة طه، الآيات ١٠٥-١٠٧]. وقوله سبحانه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [سورة الواقعة، الآيات ٤ - ٦]، أي تفتّت الجبال وتناثرت، حتى أصبحت كالهباء والغبار المتطاير في الهواء، لا شيء يُرى منها. وقوله سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ، الآية ٢٠] أي نسفت الجبال حتى صارت كالسراب، الذي يظنه الناظر ماء، وهو في الحقيقة هباء ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [سورة النور، الآية ٣٩] إذاً ليس في الآخرة جبال ولا وهاد، ولا وديان ولا هضاب، فكيف ينظر الإنسان إلى الجبال وهي تمرُّ مرَّ السحاب وقد تناثرت عند النفخ في الصور؟

ثالثاً: الآية الكريمة تقول: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ والآخرة ليس فيها حسبانٌ ولا ظن، إنما تظهر فيها الحقائق، على أتم الصور وأكمل الوجوه، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [سورة التكاثر، الآية ٧] وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق، الآية ٢٢] فهذا مما يؤيد ويرجح أن الآية ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ في الدنيا لا في الآخرة، لأن الظنَّ والحسبان لا يكون في

الآخرة «دار اليقين» التي يرى فيها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، الجنةَ والنارَ رأي العين ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾[1] ويرى كل واحد في القيامة، ما كان مخفياً عنه في الدنيا، فاللفظ الذي جاء بصيغة الظنِّ والتخمين ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ يرجح أن هذا في الدنيا لا في الآخرة، لأن الآخرة دار الحقائق لا الظنون.

رابعاً: لفت القرآن أنظار المتأملين في آياته البينات لفتة بديعة رائعة في قوله سبحانه: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ فبيَّن أن هذه الغرائب المدهشة في الدنيا هي أثر صنع اللّه، وتدبيره لهذا الكون، والخرابُ والدمار لا يُسمَّى صنعاً، ولا يدخل في حيِّز الإتقان، فعند قيام الساعة تتزلزل الجبال وتتطاير، ومثلُ هذا لا يُقال له: صنعٌ، ولا يوصف بالإتقان، بإمكاننا أن ننسف عمارة من خمسين طابق بثوانٍ ودقائق، بشيء من المتفجرات، فهل يقال: إن هذا إتقان وإبداع؟ الصنعُ والإبداع إنما يكون في البناءِ لا في التدمير.

خامساً: ختم اللّه الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي إنه سبحانه عالم بما تفعلونه الآن في الدنيا، والآخرة ليس فيها فعل ولا عمل، إنما هي دار الجزاء، الدنيا دار

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

التكليف، والآخرةُ دار التشريف، فكيف يخاطبهم وهم في أرض المحشر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ وهم لا يستطيعون أن يأتوا بحركة، أو ينبِسُوا ببِنْتِ شَفَة؟.

سادساً: أخبرنا النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق أن الناس يحشرون يوم القيامة على أرضٍ بيضاء مستوية كما في الصحيحين: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ، عَفْرَاءَ، كقُرصةِ النَقِيِّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحدٍ»[1] أي مثل قرص الخبز الأبيض، الخالص البياض، فأين هي الجبال حتى ينظر الناس إليها يوم القيامة؟ فهذا نصٌّ قاطع على أنه ليس في الآخرة جبال ولا وهاد، ولا قصور ولا بناء، ولا قلاع أو ناطحات سحاب.

قال الخطابي: يريد أنها أرض مستوية.

وقال عياض: المراد أنها ليس فيها علامة سكنى، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يُهتَدَى بها في الطرقات، كالجبل والصخرة البارزة[2].

وأقوال المفسِّرين والمحدِّثين تثبت أن لا جبال في القيامة، لأن

---

(١) رواه البخاري ١١/٣٢٣ في الرقاق، ومسلم في المنافقين برقم ٢٧٩٠ وانظر جامع الأصول ١٠/٤٢٤.

(٢) فتح الباري على صحيح البخاري ١١/٣٧٥.

الناس يحشرون على أرض مستوية كما هو نص الحديث.

سابعاً: إن قيل: إن رؤية الجبال ليست في القيامة، إنما هي وقت نسفها عند قيام الساعة، حين يُنفخ في الصور إيذاناً بالخراب!!.

فالجواب: إن الناس يكونون وقت النفخة في فزع واضطراب، يفقدهم الرشد والصواب، ليس عندهم مجال لينظروا إلى الجبال، وهي تسير وتتحرك، لأن الواحد منهم حالُه كحال السكران، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ سورة الحج.

فمن أين لهم الاستمتاع برؤية الجبال وهي تسير؟ وإذا كانت المرأة تذهل عن وليدها، وتسقط حملها من شدة أثر الزلزلة، فكيف يتأتّى للبشر النظر إلى الجبال؟! وقد قال ﷺ فيما رواه البخاري: «ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أحدكم أُكْلَته إلى فيه فلا يَطْعمها»[1] أي رفع اللقمة إلى فمه فلا يستطيع أن يأكلها، فهل هو الآن يستطيع النظر إلى الجبال مع هذه الأهوال والشدائد؟!.

---

(١) طرف من حديث طويل في أشراط الساعة أخرجه البخاري ١١/٣٥٢ من فتح الباري.

ثامناً: وأما مجيء الآية في سياق شدائد وأهوال الساعة ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً...﴾ الآية، فهذا من الأسلوب الحكيم في مخاطبة عقول البشر، بما يتفق ومداركهم وأفهامهم، وهو من خصائص الإبداع القرآني، أنه تعالى لم يجعل الأمر صريحاً مكشوفاً، حتى يتجرأ على تكذيبه أحد من الكفار، فلو قال لهم: الجبالُ تسير، وأنتم تحسبونها واقفة في أماكنها، لقالوا: هذا كذبٌ مستحيلٌ نحن نراها بأمِّ أعيننا ساكنة في أماكنها، فكان من الأسلوب الحكيم أن قدَّم لها بتقدمة عن أهوال الساعة، حتى إذا جاء عصر الأقمار الصناعية، والمراكب الفضائية، وعصر غزو الفضاء، رأوا بأم أعينهم صدق ما أخبر عنه القرآن، ولهذا غاير تعالى بين اللفظتين ﴿ ويوم يُنفخُ في الصور ﴾، ﴿ وتَرىٰ الجبالَ تحسبها جامدة ﴾ فجاء في الآية الأولى بصيغة المجهول، وجاء في الآية الثانية بصيغة المعلوم، بالخطاب للناظر المشاهد، الذي يرى الجبال بعينيه واقفة، مع أنها تسير، وأكَّدها بالصنع والإتقان، والإخبار عن علمه تعالى بأعمالهم في الدنيا، وهذا ما كشفه لنا الزمان في عصر غزو الفضاء، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1] ؟!.

---

(١) سورة فصِّلت الآية ٥٣.

قوّة الجذب والطرد

إن القشرة الأرضية التي تحيط بكوكبنا الأرضي، واقعة تحت تأثير قوتين، مختلفتين في الاتجاه، متعادلتين في القوة ـ كما يقول علماء الجغرافيا ـ وهما:

١ ـ **قوة الطرد المركزية**، الناجمة عن دوران الأرض حول محورها.

٢ ـ **وقوة الجاذبية**، الناتجة عن جذب الأرض لها.

ولولا تعادل هاتين القوتين، لتطايرت أجزاء القشرة الأرضية، وتناثرت في الفضاء، وتطايرت معها الجبال، والمصانع، والمباني، والبشر الذين هم على سطحها. وهذا القانون الذي وضعه الخالق الحكيم، في تثبيت نظام الكون، وتسخيره للبشر، يفسِّر لنا قول الله العلي الكبير عن السموات والأرض ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾[سورة فاطر،الآية ٤١] أي لا يقدر أحد على إمساكهما، والزَّوالُ: هو الذهابُ، والاندثار، والتطاير في الفضاء؛ بحيث لا يبقى للشيء أثر. أما السمواتُ فالأمر فيها واضح ظاهر، فإنها تحتاج إلى إمساك، لأنها واقفة بقدرة الله، بغير دعائم ولا أساطين، ولا ترتكز على شيء من الأعمدة التي تحملها، وإنما أمسكتها يد العزيز الرحيم، الذي أبدع نظام الكون.

وأما الأرض فهي كذلك تحتاج إلى إمساك ، لئلا تتناثر

في الفضاء، وقد ضبط المولى جلَّ وعلا حركتها في دورانها، بسبب هاتين القوتين، اللتين أودعهما الله عز وجل في ضبط نظام الكون، وتعادل القوتين: قوة الطرد، وقوة الجذب، مما يجعل الحياة مستقرة فوق سطح هذا الكوكب الأرضي، وهنا ندرك سرَّ التعبير بإمساك الله سبحانه للأرض، في حركتها ودورانها، ولو كانت واقفة ثابتة على شيء، لما احتاجت إلى الإمساك، فسبحان الحكيم العليم!!

برهان ساطع
على صدق رسالة محمد ﷺ

بعد استعراض هذه الأدلة، حول حركة الأرض ودورانها، نقول: إنَّ ما جاء به القرآن «سبقٌ علمي» كشفه هذا العصر والزمان، وهو برهان ساطع على صدق رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وأن هذا القرآن وحيٌ منزل من عند الله العزيز الحكيم، خالق الإنسان، ومبدع الأكوان.

من أين لمحمد ﷺ أن يُخبر عن هذه الحقائق العلمية، التي لم يتوصل إليها البشر، إلا في عصر الأقمار الصناعية، وعصر المراكب الفضائية؟ في وقتٍ ما كان الناس يعرفون فيه هل الأرض كروية أم منبسطة؟ ومن أين له أن يعرف هذه الدقائق عن الأسرار الكونية، وهو رجل أميٌّ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يدرس في مدرسة، ولا تلقَّى العلم

على يد أحد من الناس؟ وقد عاش في الجزيرة العربية، التي اشتهر أهلها بالأميَّة، وما كان الناس في عصره يعرفون إلا الشيء اليسير عمَّا حولهم من البلدان، فضلاً عن أن يعرفوا القارّات، والأماكن النائية من المحيطات، والقطب الشمالي والجنوبي من الكرة الأرضية، وأن يدوروا حول الأرض في مراكب فضائية، ويصوروها وهي تشرق وتغرب كالشمس والقمر، لولا أن الله عز وجل أوحى إليه في هذا الكتاب المعجز، الذي هو المعجزة الخالدة، بهذه الأمور والحقائق، مما يجعلنا نقطع ونجزم بأن هذا القرآن تنزيل الحكيم الحميد، الذي أحاط بكل شيءٍ علماً، وأن ما جاء به القرآن من حقائق علمية، أيدتها الاكتشافات الحديثة، من أعظم الدلائل والبراهين، على صدق رسالة نبينا محمد ﷺ وأنه ليس بمستطاع أحدٍ من البشر ـ في العصر الذي عاش فيه الرسول ـ أن يتنبأ عن شيءٍ من هذه الحقائق المدهشة، إلا إذا كان بطريق الوحي السماوي، المنزل على رسل الله، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾(١).

---

(١) سورة الإسراء الآيات ١٠٥ ـ ١٠٩.

نعمة تعاقب الليل والنهار بدوران الأرض[٧]

قلنا: إن من دوران الأرض حول الشمس يحدث الليل والنهار، وقد ذكّرنا الباري جل وعلا بهذه النعمة العظيمة الجليلة، نعمة تعاقب الليل والنهار، التي تتوقف الحياة عليهما، ولا يمكن العيش بدونهما، وذلك في سورة القصص في قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، ثم جعل الليل والنهار ـ وهما ظاهرتان كونيّتان عجيبتان ـ أثراً من آثار قدرته، ومظاهر رحمته فقال: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[١].

ومعنى الآيات الكريمة: يقول اللّه لرسوله قل لهم يا محمد: أخبروني لو جعل اللّه عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع، هل هناك إلّهٌ غيره قادرٌ على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غير خالقكم؟ أفلا تسمعون

(١) سورة القصص، الآيات ٧١ ـ ٧٣.

كلام ربكم سماع فهمٍ وتدبر، فتستدلون بذلك على وحدانية اللّه تعالى؟.

وقل لهم أيضاً: أخبروني لو جعل اللّه عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع، من هو الإلّه القادر على أن يأتيكم بليلٍ تستريحون فيه من الحركة والتعب غير اللّه تعالى؟ أفلا تبصرون آثار قدرة اللّه في هذا الكون العجيب؟.

ومن آثار قدرته، ومظاهر رحمته جلَّ وعلا، أن خلق لكم الليل والنهار، يتعاقبان بدقةٍ وإحكام، لكي تستريحوا بالليل من نَصَب الحياة، وهمومها وأكدارها، ولتلتمسوا أسباب الرزق في النهار بالكسب والعمل، ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تُحصى، ومنها نعمة خلق الليل والنهار.

قال الإمام الفخر الرازي: نبَّه تعالى بهذه الآيات الكريمة، على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان، لأن المرء في الدنيا مضطرٌّ إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولولا الراحة والسكون بالليل، فلا بدَّ منهما في الدنيا، وأمَّا في الجنة فلا نَصَب ولا تعب، فلا حاجة بهم إلى الليل، فلذلك يدوم لهم الضياء واللَّذات»[1] ا. هـ.

---

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ٢٥/١١.

مَاذا لو كانت الأرض غير مُتحركة ؟

تصوروا لو أن الكرة الأرضية تـوقفت عن الدوران، وتعطلت حركتها، فأصبح نصفها المواجه للشمس، لا يتغير عن مكانه، وأصبح دائماً لا يبرح، سوف تحرقنا الشمس بأشعتها، وتتلف الزروع والثمار، فمن هو القادر على أن يدير حركتها غير الباري جل وعلا؟.

ولو كان الأمر بالعكس، وتوقفت حركة الأرض، وكانت الشمس إلى الجهة الأخرى التي تقابلنا، واستمرَّ الليل علينا بلا انقطاع، أفلا تتعطل مصالح العباد، وتتلف المحاصيل، ويُقضى على الزرع والضرع؟ ولهذا ذكَّرنا اللّه بنعمة دوران الأرض، التي بسببها يتولد الليل والنهار، فسبحان من حرَّكها بقدرته، وجعل حركتها من آثار وجوده ووحدانيته!!.

أقوال لبعض المفسّرين

لقد أشار بعض كبار علماء التفسير من السلف الصالح، إلى حركة الأجرام السماوية ودورانها، وإن كـانت هذه الإشارات طفيفة وعابرة، إلَّا أنها تدل على فهمٍ ثاقب، ونظرٍ بعيد، قبل أن يتعرف العلم الحديث على هذه الحقائق العلمية، في عصر الأقمار، والمراكب الفضائية، وعصر غزو

الفضاء. . فقد نقل الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب «بدء الخلق» عن الإمام «مجاهد بن جبر» ـ وهو من كبار المفسرين من التابعين، وأحد تلامذة عبد اللّه بن عباس، ترجمان القرآن ـ أن للشمس حركة حول محورها، وأنها تدور كما تدور رحى الطاحون، التي يُطحن بها القمح، فهي تدور في فلكها وفي مكانها، وتدور في محورها بشكل نظيم رتيب، وهذا ما أثبته العلم الحديث اليوم، أن للشمس حركةً حول محورها، وليست واقفة أو ثابتة في مكانها، كما كان المظنون عند بعض علماء الفلك.

يقول البخاري ٦/٢٩٦ : باب صفة الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿ الشمسُ والقمر بحُسْبان ﴾.

قال مجاهد: كحُسْبان الرحى، وقال غيره: ﴿ بحُسبان ﴾ أي بحسابٍ ومنازل لا يَعْدُوانِها، حُسبانٌ: جماعة الحساب، مثلُ شهابٍ، وشُهبان.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: مراده أنهما يجريان على حسب الحركة الرَّحوية الدَّورية، ووضعها[1].

وقال المفسِّر الشهير «أبو حيان» في تفسيره المسمى البحر المحيط: **قال مجاهد**: الحُسْبانُ: الفَلَكُ المستدير،

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ٦/٢٩٨.

شبَّهه بحسبان الرَّحى، وهو العودُ المستديرُ، الذي باستدارته تستدير المطحنة[1].

ماذكره الألوسي حول حركة الأرض

ويقول الشيخ «محمود شكري الألوسي» حول حركة الأرض ودورانها: «يقول علماء الهيئة الجديدة ـ يقصد علماء الفلك ـ الأرض جرمٌ من الأجرام السماوية التابعة للشمس، وهي السيارات الدائرة حولها، والتي تسمى بالنظام الشمسي، والتي تنتهي عند «نبتون» أبعد الكواكب السيارة عن الشمس، فإنه إلى الآن لم يُكشف عن وجود جرمٍ تابع للنظام الشمسي أبعد من المذكور. . . والنجومُ الثوابت ليست من النظام الشمسي، بل هي مستقلة، تُرى نقطاً لامعةً منيرة في القبة الزرقاء.

والكوكب السيَّارُ التابع للنظام الشمسي، الذي نحن ساكنون عليه هو «الأرض» وقد قال علماء الهيئة عنها: إنها كرويّةُ الشكل، وأقاموا على ذلك دلائلهم المعلومة، وممن قال بكرويتها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه.

وإنها ـ أي الأرض ـ على عِظَمها سابحةٌ في الفضاء، وليست لها حافَّةٌ ينتهي إليها من يجوب سطحها، كما إذا

(١) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان.

مشت نملةٌ على بطيخة مغلقة، فهي لا تنتهي إلى حافة، كذلك الأرض الكروية الشكل، **السابحة في الفضاء**، ليس لها حافة ينتهي إليها من يقطع سطحها، وهي عائمة في الفضاء.

وللأرض عندهم حركتان:

١ - حركةٌ يومية، وهي دورانها على محورها، مرة من الغرب إلى الشرق، ومنها اختلاف الليل والنهار.

٢ - وحركة من الغرب إلى الشرق حول الشمس، مرة واحدة كل سنة، ومنها تتكون الفصول الأربعة.

ثم قال الشيخ الألوسي: هذا ما ذكره علماء الهيئة الجديدة في شأن الأرض، وقد تصفحتُ القرآنَ العظيم، فوجدتُ عدة آيات نطقت بما يتعلق بالأرض، من جهة الاستدلال بها، على وجود خالقها، وعظمة باريها، ولم يُذكر فيها شيءٌ ممَّا يُخالف ما عليه علماءُ الهيئةِ اليوم.

وجعلُ الرواسي فيها لا يعارضُ حركتَها اليومية، والسنوية، بوجهٍ من الوجوه، كما أن السفينة إذا كان فيها أجرامٌ ثقيلة، تمنع اضطرابها وميلها من جانب إلى جانب، ولا ينافي ذلك حركتها، وإذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة، تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى حركة شيء، وإن وضعت فيها أجرام ثقيلةٌ تستقر، فكذا الأرض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت، فالجبال بالنسبة إليها كالأجرام

الثقيلة الموضوعة في السفينة بالنسبة إليها»[1].

كروية الأرض في رأي ابن تيمية

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ٢٥/١٤٢:

«ونظير الشهر والسنة، اليومُ والأسبوع، فإن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها، وأما الأسبوع فهو عددي، من أجل الأيام الستة التي خلق اللّهُ فيها السموات والأرض، فوقع التعديل بين الشمس والقمر، باليوم والأسبوع بسير الشمس، والشهرُ والسنة بسير القمر، وبهما يتمُّ الحساب.

فأما قوله تعالى: ﴿ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً، والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ الشَّمسُ والقمرُ بحُسْبَانٍ ﴾ فقد قيل: هو من الحساب، وقيل: بحسبان كحُسْبان الرَّحىٰ، وهو دوران الفلك، فإن هذا مما لا خلاف فيه، بل قد دلَّ الكتاب والسنة، وأجمع علماءُ الأمة، على مثل ما عليه أهل المعرفة من أهل الحساب، من أن الأفلاك مستديرة لا مسطَّحة»[2].

---

(١) ما دلَّ عليه القرآن، مما يعضد الهيئة الجديدة بالبرهان للألوسي ص ٦٧ ـ ٦٨ نقلاً عن كتاب «المسلمون وعلم الفلك» لفضيلة الشيخ محمد محمود الصواف ص ٤٤.

(٢) فتاوى ابن تيمية ٢٥/١٤٢.

وفي مكان آخر من الفتاوى **٦/٥٨٦** سئل رحمه اللّه عن كيفية السماء والأرض، هل هما جسمان كرويان؟ فأجاب:

«السموات مستديرةٌ عند علماء المسلمين، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غيرُ واحد من العلماء أئمة الإسلام، مثل «أحمد بن جعفر المنادي» من أصحاب الإمام أحمد، وله نحو أربعمائة مصنف، والإمام ابن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية.

ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك، إلَّا من لا يُؤبهُ له من الجهَّال.

قال: ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

قال ابن عباس وغيره من السلف: في فَلَكةٍ مثل فلكة المغزل، **وهذا صريح بالاستدارة والدوران**، وأصل ذلك، أن «الفَلَك» في اللغة: هو الشيءُ المستدير، يُقال: تفلَّك ثديُ الجارية، إذا استدار، ويقال لفلكة المغزل المستديرة: فَلَكةٌ، لاستدارتها.

فقد اتفق أهل التفسير واللغة، على أن الفلك هو المستديرُ، والمعرفةُ لمعاني الكتاب، إنما تؤخذ من هذين الطريقين:

أ ـ من أهل التفسير الموثوق بهم من السلف.

ب ـ ومن اللغة التي نزل بها القرآنُ، وهي لغة العرب.

وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾[1].

والتكويرُ: التدويرُ، يُقال: كوَّرتُ العمامةَ إذا دوَّرتها ويُقال للمستدير: كارةٌ، وأصلُه كَوْرةٌ.

والليلُ والنهارُ، وسائر أحوال الزمان تابعةٌ للحركة، فإن الزمان مقدارُ الحركةِ، والحركةُ مقدار الجسم المتحرك، فإذا كان الزمان التابع للحركة، التابعةِ للجسم، موصوفاً بالاستدارة، كان الجسم أولى بالاستدارة[2].

وفي مكان آخر من الفتاوى ٢٥/١٩٥ ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ما يدل على حركة الأرض، وأقرَّه ولم ينكره، بل استحسنه وأثنى على قائله فقال رحمه اللّهُ ما نصُّه:

«وقال الإمام أبو الحسين «أحمد بن جعفر بن المنادي» من أعيان العلماء، المشهورين بمعرفة الآثار، والتصانيف الكبار، في فنون العلوم الدينية، من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد: لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب، كدورة الكرة، على قطبين ثابتين غير متحركين: أحدهما في ناحية الشمال، والآخر في ناحية الجنوب، قال: ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها، التي تدور من المشرق تقع قليلاً على

---

(١) سورة الزمر الآية ٥.

(٢) الفتاوى لابن تيمية ٦/٥٨٨.

ترتيبٍ واحد في حركاتها، ومقادير أجزائها إلى أن تتوسط السماء، ثم تنحدر على ذلك الترتيب، كأنها ثابتةٌ في كرة تديرها جميعها دوراً واحداً، قال: **وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها، من البر والبحر مثل الكرة**، ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب، لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب.

فكُرَةُ الأرض مثبتةٌ في وسط كرة السماء، كالنقطة في الدائرة، يدل على ذلك أن جرم كل كوكبٍ، يُرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد، فيدلُّ ذلك على بعد ما بين السماء والأرض، من جميع الجهات بقدرٍ واحد، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء..»(١). ا هـ.

آراء مستنيرة حول كروية الأرض

ولا عجب أن نرى مثل هذه الأقوال، يتبناها علماؤنا المتقدمون، فهذه آراء أهل العلم والفهم السليم، الذين تنورت بصائرهم، وتبحَّروا في شتى العلوم والفنون فكانوا جبالاً، وتفتَّحت قرائحهم فكانوا أعلاماً، وكانوا مشاعل يُهتدى بهم في ظلمات الحياة!!

---

(١) الفتاوى ٢٥/١٩٦.

إنكار البدهيّات مسخٌ للفكر

ونحن نعجب اليوم ـ مع تقدم الازدهار العلمي في عصر المكتشفات والمخترعات ـ من أناسٍ ينكرون البدهِيَّات، فيقولون: الأرض منبسطة وليست كرة، وينسبون هذه الآراء إلى الدين، مع أن علماءنا المتقدمين رحمهم اللّه، قالوا بكروية الأرض، وأقاموا على ذلك أدلة علمية وعقلية، قبل أن يطوف حولها روَّاد الفضاء في هذا العصر، ويصوّروها بآلات التصوير، ويراها الناس رأي العين، وهي مكوَّرة مدوَّرة!!.

ومن الأدلة العقلية البدهيَّة التي استدل بها المتقدمون، على كروية الأرض أنهم قالوا: لو كانت الأرض منبسطة، مستوية، لكان ينبغي أن تشرق الشمس على جميع البلدان في وقت واحدٍ، وأن تغرب عنها في وقتٍ واحد، لأن الشمس أكبر بمليون مرة من الأرض، ولو كانت الأرض كالبساط لأشرقت الشمس على أهل بغداد، والقاهرة، ومكة، ودمشق، وأهل بومباي في الهند، وأهل الأندلس في المغرب في وقت واحد، وغربت عنهم في وقت واحد، فلما رأينا تفاوتاً في الشروق والغروب، يمتد أحياناً إلى عشر ساعات، بحيث يكون وقت طلوع الشمس في مكة مثلاً هو وقت غروبها في أمريكا أو كندا، فهذا من أظهر الدلائل على كروية الأرض.

أقوال المفسّرين في كروية الأرض

وها أنا ذا أنقل بعض أقوال للمفسرين حول كروية الأرض، حتى لا يبقى في النفس شيء من الشك أو الارتياب، وحتى يعلم شبابنا المثقف، الذي درس العلوم العصرية، أنه ليس بين العلم والدين عداء، وليس هناك تعارض بين «الحقائق العلمية» وبين العلوم الدينية، فاللّهُ الذي أنزل القرآن، هو الذي وضع قوانين وأنظمة الكون، فلا تعارض ولا تصادم، إنما يكون التناقض والتعارض، في النظريات التي لم ترق إلى درجة اليقين، أو الحقائق المقطوع بها.

١ ـ **قال الإمام البيضاوي** ـ وهو من المفسرين المتقدمين ـ عند قول اللّه تعالى في سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾: «أي مهيَّأة لأن يقعدوا ويناموا عليها، كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة، لأن كروية شكلها مع عظم حجمها، لا يأبى الافتراش عليها ﴿ والسماء بناءً ﴾ أي سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة»[1].

---

(١) تفسير القاضي البيضاوي ١/١٦.

فأنت ترى أن رأي الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يعرفها رواد الفضاء.

٢ ـ وقوله عز وجل في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي هو تعالى بقدرته بَسَط الأرض، وجعلها ممدودة فسيحة، ليستقرَّ عليها البشر، ولو كانت كلُّها ودياناً، وجبالاً، وهضاباً، ولم يكن فيه سهولٌ فسيحة، لما أمكن العيش عليها، قال ابن جزي في تفسيره المسمى «التسهيل في علوم التنزيل» ما نصه: «ولا يتنافى لفظ البسط والمدِّ مع التكوير، لأن كل قطعةٍ من الأرض ممدودة على حِدَتها، وإنما التكويرُ لجملة الأرض»[(١)].

٣ ـ **وقال الإمام الألوسي في تفسيره عند قول الله** تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ في سورة نوح قال: «وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كلُّ من عليها ما يليه مسطَّحاً، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كرويتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطاً أي تتقلبون عليها كالبساط»[(٢)]. ا. هـ.

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٢/١٣٠.

(٢) تفسير روح المعاني ٢٩/٧٦، وانظر كتابنا صفوة التفاسير ٣/٥٤٢ تجد الأدلة واضحة.

وقد استنبط الإمام ابن تيمية من قوله تعالى: ﴿ يُكوِّرُ الليلَ على النهارِ، ويُكوِّرُ النَّهارَ على اللَّيلِ ﴾ كروية الأرض كما في الفتاوى[1].

فانظر ـ رعاك اللّه ـ إلى علمائنا المتقدمين، كيف كانت علومهم ومعارفهم واسعة الأرجاء، وبصائرهم وأفهامهم ثاقبة، في وقت لم يكن يعرف الناس فيه من علوم الكون، إلا النزر اليسير، وكلُّ ذلك من سعة العلم والاطلاع، ونور البصيرة والإخلاص.

ومن العجب أيضاً ما نسمعه عن أنصاف، أو أرباع، أو أعشار المتعلمين، ممن لم يحظ بفهم سليم، ينكر المحسوس المشاهد، ويكابر في أمور قطعية، تحققت في هذا العصر والزمان، كوصول رواد الفضاء الأمريكان إلى القمر، ويقول: هذا مستحيل لأنه يعارض الدين، ظناً منه أن القمر داخل السموات، وبعضهم يقول: إنهم صعدوا إلى جبل فوق السحاب في منطقة عالية من الأرض جداً، وظنوا هذا الجبل قمراً... وقد كنت كتبت مقالاً تحت عنوان (الرحلة إلى القمر) قبل أن يصعد رواد الفضاء بمركبتهم إلى القمر ويصلوا إليه، بينت فيه رأي الدين، وإليكم نص المقال الذي نشر في مجلة رابطة العالم الإسلامي:

---

(١) انظر فتاوى شيخ الإسلام، ابن تيمية ١٩٣/٢٥.

الرحلة إلى القمر

تناقلت الأنباء والصحف أخبار رواد الفضاء الثلاثة، ورحلتهم إلى القمر، وكان حديث الناس في هذه الأيام في مجتمعاتهم ومنتدياتهم، يدور حول موضوع «المركبة الفضائية» وإمكان نزول إنسان فوق سطح القمر. . .

وكان الناس بين مصدق ومكذب، ومتشكك في الأمر، وبين قاطع بعدم الإمكان لأن ذلك ـ على حدِّ زعمه ـ يتنافى مع عقيدة الإسلام، إذ كيف يمكن اختراق السماء والوصول إلى القمر، وهكذا أصبحت أنَّىٰ سرتَ، وحيثما يمَّمت وجهك تجد من يتحدث لك عن «المركبة الفضائية» وعن «القمر» وغزو الإنسان له[1]. . وأحب أن أجلي الحقيقة عن

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة رابطة العالم الإسلامي عام ١٣٨٩ هـ قبل صعود رواد الفضاء إلى القمر بثلاثة شهور، وفي الوقت الذي كانت الصحف والمجلات تتحدث عن هذا النبأ الهام، الذي شغل الأذهان، واختلفت فيه الآراء ما بين منكر ومصدِّق، فقد أبدى المؤلف وجهة النظر من الناحية الإسلامية، فذكر بالدليل والبرهان، إمكان وصول الناس إلى القمر، وإلى بعض الكواكب والنجوم، لأن هذه الأفلاك كلها تحت السماء الأولى بنصِّ القرآن الكريم، الذي جعل هذه الكواكب زينةً لأهل الأرض، وأما السموات فلا يمكن =

هذا الحدث الجديد، الذي أصبح حديث الناس في منتدياتهم ومجتمعاتهم، واستغله أعداء الدين، لتشويش عقائد بعض البسطاء من المسلمين فأقول ومن الله أستمد العون.

الكون جميعه مسخّر للإنسان

أولاً: ليس في الشريعة الإسلامية الغراء ما يمنع من إمكان وصول الإنسان إلى القمر، فكل ما في هذا الكون مخلوق ومسخر لهذا الإنسان ليُعْمِل عقله، وليستفيد منه كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١) فالسموات والأرض، والنجوم والكواكب كل هذه مخلوقة ومسخرة لهذا الإنسان، وكل ما في السموات والأرض من شموس وأقمار، وجبال وأنهار، وأشجار وأطيار، وما فيها من فواكه وثمار، كل ذلك إنما خلقه الله من أجل هذا الإنسان، وصدق الله حيث يقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

= اختراقها ولا الوصول إليها، لأن الله تعالى جعلها سقفاً محفوظاً، وهكذا أثبت العلم الحديث إمكان وصول البشر إلى القمر كما توقعه المؤلف.

(١) سورة الجاثية الآية ١٣.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1]، فالأرض مخلوقة للإنسان، والقمر مخلوق للإنسان، والشمس مسخرة له، وكذلك النجوم والكواكب، وكل هذه آيات دالة على وجود اللّه، تنطق بقدرته وتشهد بوحدانيته، وللّه در القائل حيث يقول:

«وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد»

القمر أحد الأجرام السماوية

ثانياً: إن القمر ليس إلا جرماً من الأجرام السماوية، التي لا يحصي عددها إلا اللّه، والذي يدور بقدرة اللّه في فلك لا يتعداه، يدور مع الشمس والكواكب، في هذا الفضاء الواسع «اللانهائي» يدور في نظام دقيق، محكم غاية الإحكام.. وهو في دورانه السريع مع بقية النجوم والأفلاك، لا يرتطم ولا يصطدم بشيء من هذه الكواكب العظيمة، ولا

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ ـ ٣٤.

يمكن له ـ في مسيرته ودورانه ـ أن يزيغ عن نظامه الذي حدَّده اللّه تعالى له، أو أن يقترب من الشمس فيدخل في فلكها ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

فالشمس تسير، والقمر يسير، والكواكب كذلك تدور في أفلاك وبروج، وليس شيء منها يصطدم، أو يحيد عن خط سيره، لأنها تسير حسب نظام العليم القدير. . الكل في حركة ودوران، وفي سير وجريان، وصدق اللّه حيث يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

وهذا النظام الفلكي الدقيق ليس من صنع الطبيعة، ولا من عمل الإنسان، إنما هو بتقدير اللّه الواحد الأحد، الذي يقول للشيء كن فيكون. . ولقد أقسم اللّه عز وجل بمنازل النجوم أقسم بأفلاكها وأبراجها ليشير إلى عظيم صنعها، ويلفت الأنظار إلى قدرة خالقها وموجدها فقال عز من قائل: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾[3].

(١) سورة يسٓ الآية رقم ٤٠.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٣.
(٣) سورة الواقعة الآيات ٧٥ ـ ٧٨.

الكواكب والنجوم
دون السماء الدنيا

ثالثاً: إن الشمس والقمر والنجوم، كلها دون السماء الدنيا، وهي تسبح في هذا الفضاء الواسع بقدرة اللّه العزيز الحكيم، والقمر ليس إلا أحد هذه الكواكب السيارة، وقد ثبت أنه أقرب الكواكب إلى الأرض، وأنه يستمد نوره من الشمس فيضيء الكرة الأرضية، وإذا كان القرآن الكريم قد أخبرنا بأن النجوم كلها تحت السماء الدنيا وليست داخل السماء، فالقمر إذاً وهو أقرب هذه الكواكب، تحت السماء وليس داخل السماء كما يظن بعض الناس، فليس إذاً من المستبعد عقلاً، ولا الممنوع شرعاً أن يصل الإنسان إلى القمر ومما يدل على ذلك قول اللّه العلي الكبير: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾(٢)، فالنجوم بنص الآيات الكريمة هي زينة زين اللّه بها السماء الدنيا، والزينة تكون ظاهرة، فهي ظاهرة للعيان، وهي تشبه مصابيح الكهرباء المعلقة بسقف البيت فهي إذاً ليست داخل السماء، فالوصول إلى القمر أو

---

(١) سورة الملك الآية ٥ .

(٢) سورة الحجر الآيتان ١٦ ـ ١٧ .

إلى الأفلاك والنجوم ليس فيه خرق للسموات، لأن اللّه عز وجل جعل السماء سقفاً محفوظاً كما قال اللّه تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

ولو كانت هذه الأفلاك بما فيها الشمس والقمر داخل السموات لاحتاجت أن تخرقها في سيرها وجريانها، وهذا مما لا تؤيده النصوص الشرعية، ولا يتفق مع الكشوف العلمية، التي تعتمد على التجربة والمشاهدةِ الحسية، ومن المقطوع به عند جميع المسلمين أن الدين لا يعارض الأمور الحسية ولا يمكن أن ينكر الأمر المشاهد المحسوس، ولقد استطاع رجال الفضاء أن يصوروا القمر وهم على بعد خمسة عشر كيلو متراً منه، ويروا ما فيه من جبال وهضاب، وأن يبثوا هذه الصورة على شاشة (التلفزيون) ولم يبق لهم إلا الهبوط فوق سطحه، ولعله يكون في القريب العاجل، فهل بعد وصولهم إليه نقول إن هذا شيء مستحيل أو ممنوع شرعاً وعقلاً؟.

وبعد: فإن القمر والشمس وسائر الأفلاك آيات من آيات اللّه عز وجل الكونية، والله عز وجل قد أخبرنا في كتابه العزيز بأن هذه الآيات دليل القدرة والوحدانية ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٣٢ ـ ٣٣.

﴿وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وهذه الآيات الباهرات إنما تدل على وجود الصانع المنظم، المدبر الحكيم، واللّه تبارك وتعالى جعلها براهين على صدق ما جاء به القرآن الكريم، وأخبر أنه سيكشف للناس عن هذه (الآيات الكونية) ليستدلوا على أن القرآن هو كلام اللّه الحق، وأن الإسلام هو دين اللّه الحق وصدق اللّه حيث يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[2].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[3].

---

(١) سورة فصِّلت الآية ٣٧.

(٢) سورة فصِّلت الآية ٥٣.

(٣) سورة آل عمران الآية ٥٣.

صوت من السماء
ينطلق إلى الأرض من القمر[1]

صـوت من السمـاء، هبط إلى الأرض، مجلجـلاً، قعد له الملايين من الخلق عند تلفازاتهم، في دورهم، يستمعون، وينظرون.

إنه صوت أحد رجال الفضاء الثلاثة الذين وصلوا إلى القمر، وأخذوا يدورون حوله. أخذ يتكلم، وقـد حوَّل عدسة تلفازه ناحية القمر، ينقل بها إلى أهل الأرض من صور سطحه ما ينقل.

قال فيما قال:

«إني أرى أفق القمر هنا، حرفاً واضحاً حاداً قاسياً. والسماء سوداء كلون الزفت تماماً. والشمس بيضاء تبين في أوسط هذا السواد ناصعة. والفوَّهتان اللتان يتراءيان كفوَّهتي البراكين، تلكما اللتان أنتم ترونهما الآن، هما فوَّهة كسبار Casper

---

(١) نُشر هذا المقالُ في مجلة العربي عدد ١٢٦ صفر سنة ١٣٨٩ هـ، تحت عنوان: «في الطريق إلى القمر»، ونظراً لأهمية المقال فقد ألحقناه بالكتاب.

وفوهة جلبرت Gilbert والجبال التي ترونها قادمة إلينا من عند الأفق، أفق القمر، بها من الفوهات العدد الكبير. . ».

كان هذا صوت فرانك بورمان Frank Porman قائد بعثة «أبولو رقم ٨ لارتياد القمر»، وذلك في الأمسية التي كان صباحها عيد الميلاد، ميلاد عيسى ابن مريم، ذلك الماضي.

جاء واضحاً في آذان الناس وضوح صوت الهاتف يأتي من جار لهم رفع سَمّاعةَ هاتفه ليتكلم لهم من قريب.

وجاء وبين المتحدث وسامعيه أكثر من ٢٠٠٠٠٠ ميل من فضاء الله الواسع. فهو أبعد صوت سمعه مخلوق إلا أن يكون ذلك وحياً.

ولأول مرة يرى إنسان بعينيه سطح القمر، وجهاً وظهراً، وهو على ارتفاع منه يبلغ نحو ٧٠ ميلاً.

ولأول مرة يَبْعد إنسان عن سطح الأرض في سفر يمتد ٢٣٣٠٠٠ ميل حتى ينال ظهر القمر الذي لم يكن رآه رجل قط، عن قرب، أو عن بعد، فالقمر لا يرينا من نفسه إلا وجهاً واحداً.

ولأول مرة يركب إنسان مركبة تسير بمثل هذه السرعة: سرعة ٢٤١٧٠ ميلاً في الساعة، وذلك عندما خرجت مركبة أبولو ٨ من مدارها حول الأرض تريد القمر، وسرعة

٢٤٦٢٩ ميلاً في الساعة عندما عادت المركبة فدخلت جوَّ الأرض مرة أخرى.

ولأول مرة يقوم العلماء بمسح بحر الفضاء، وهو بغير ماء، كما يمسحون بحار الأرض، ويقدرون فيه ما يقدرون، ويرسمون فيه الطرق، ويضربون المواعيد، أمكنة وأزماناً، وتذهب المركبة الفضائية حيث أرادها العلماء، وحيث قدَّروا لها، ولا تُخلف ميعاداً.

الرحلة

رفع المركبة، أبولو رقم ٨، إلى الفضاء، الصاروخ المسمى ساترن رقم ٥ Saturn 5، وساترن معناه زُحَل، فاسمه كاسم الكوكب المعروف.

وهو أقوى صاروخ معروف.

وهو حمل المركبة برجالها في الساعة ٧,٥١ دقيقة من صباح يوم ٢١ ديسمبر ١٩٦٨ من «كاب كندي» بفلوريدا، وهي منطلق المركبات الهوائية في الفضاء.

وصعدت المركبة ودارت في مدارها حول الأرض على بعد نحو ١٠٠ ميل من سطحها، وفي هذه الأثناء امتحن رجال الفضاء كل آلاتهم للتحقق من سلامتها.

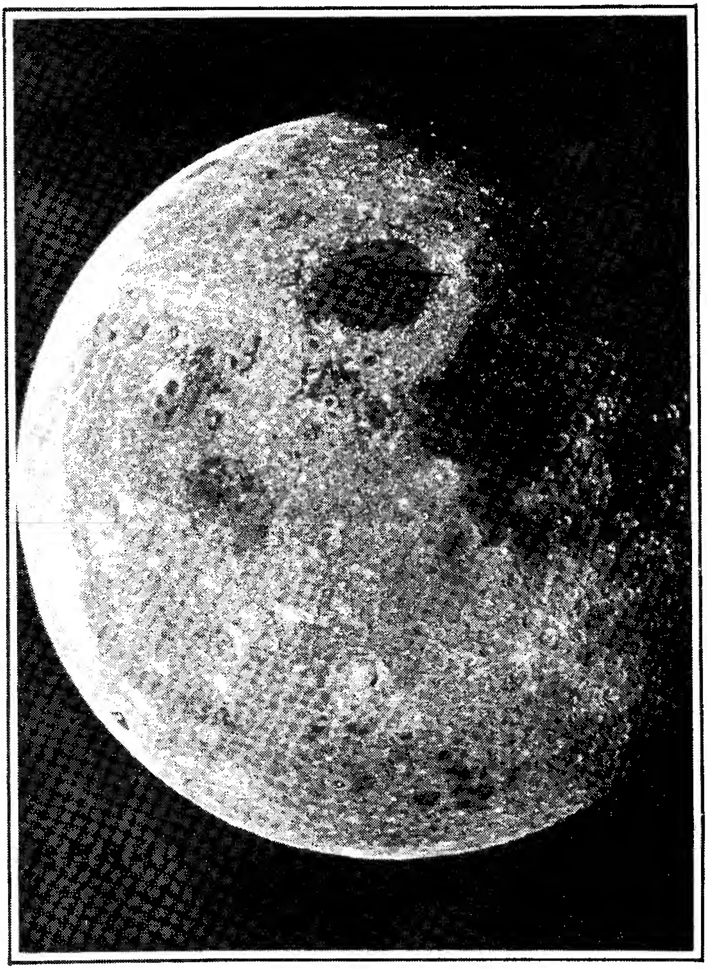
ثم هم أشعلوا صاروخهم مرة أخرى ليخرج بالمركبة عن مدار الأرض، ويقذف بها في مسار يتجه بها نحو القمر، ويكون من شأنه أن يلتقي بالقمر حيث يكون بعد ٦٦ ساعة، وهي المدة التي تستغرقها المركبة في الوصول إلى موضعه هذا.

وإذ تسير المركبة في مسارها الجديد، بسرعتها الجديدة، تأخذ هذه السرعة تتناقص بفعل جاذبية الأرض إذ تشدها إليها. ثم تقترب المركبة من حيث يكون القمر، وتدخل في نطاق جاذبيته، فتأخذ سرعتها في ازدياد.

عندئذٍ أطلق رجال الفضاء طلقة من محركهم الأصيل دخلوا بها في مدار للقمر. ولكنه كان مداراً اهليلجياً. وبعد دورتين في هذا المدار أطلقوا طلقة أخرى جعلت مدارهم حول القمر دائرياً، على ارتفاع ٧٠ ميلاً من سطحه.

ودارت العربة، أبولو رقم ٨، حول القمر، بسرعة ٣٧٠٠ ميل في الساعة، فأتمّت الدورة الواحدة في ساعتين.

وبعد عشر دورات حول القمر صنعوا أثناءها كل ما هدفوا إليه من هذه الرحلة، من نظر بالبصر وبالعدس بالتلفاز ومن تشغيل أجهزة وآلات، أطلقوا طلقة من محركهم أخرجتهم عن نطاق القمر وركبوا بها سبيلهم إلى الأرض.



صورة للقمر أخذها رجال الفضاء وهم عائدون إلى الأرض



الفوهة المسماة فوهة لنجرينس Langrenus، رآها رجال الفضاء من نافذة مركبتهم وهم يدورون حول القمر. إن قطرها يبلغ نحو ١١٥ ميلاً.

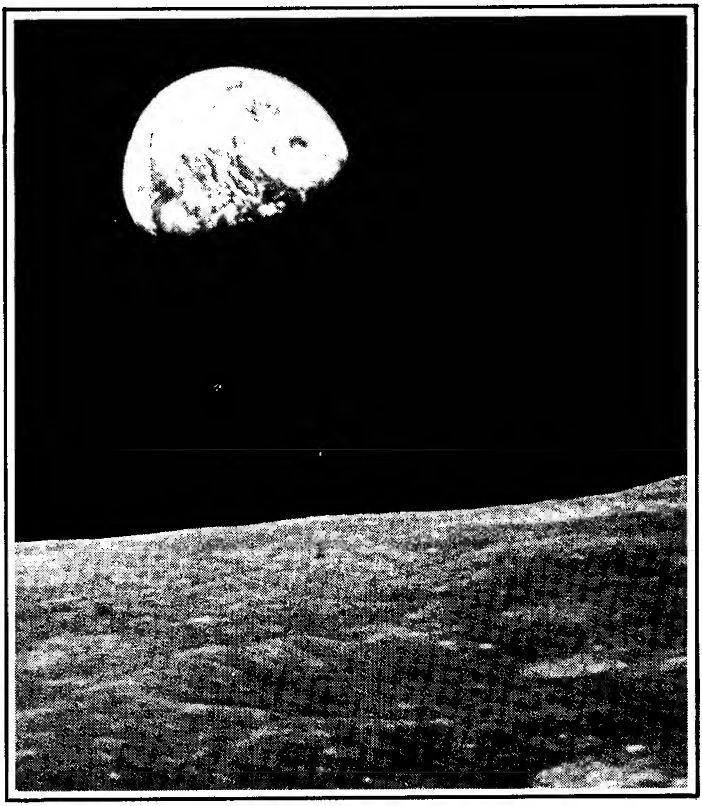
وفي الساعة ٤ والدقيقة ٥١ من ٢٧ ديسمبر ١٩٦٨، هبطت المركبة برجال الفضاء في المحيط الهادي على بعد نحو ألف ميل من جنوب غربي جزر هاواي.

وانتشل رجال البحرية الأمريكية رجال الفضاء من مركبتهم، وطاروا بهم إلى الولايات حيث انتظرهم مئات من رجال الصحافة من كل أنحاء العالم. وتحدثوا. وأفاضوا.

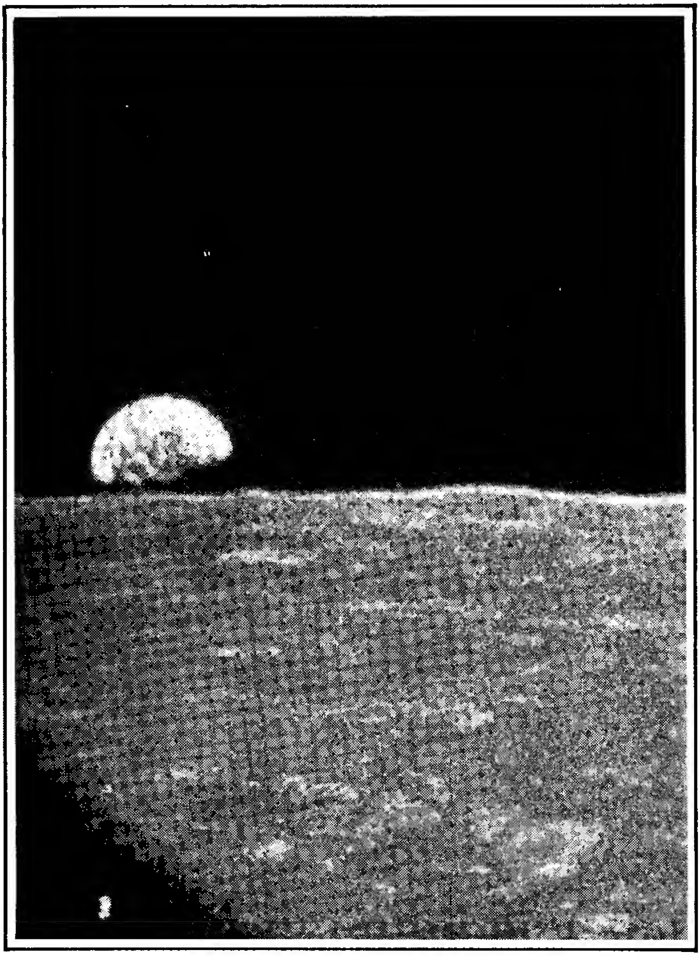
وتحدث رئيس الحفل قال: نحن مجتمعون اليوم احتفالاً بحدث تاريخي قليل النظير. لقد بدأ الإنسان يغزو الكون. إن حلماً من أحلام الإنسان العظيمة قد تحقق. وليست مركبة الفضاء أبولو رقم ٨ بآخر المطاف. إنها أول المطاف. إنه مطاف يبدأ ثم لا ينتهي.

وبانصراف رجال الفضاء عن المركبة تفرغ لها الخبراء. دخلوا إليها فجمعوا منها عشرات اللفائف من الأفلام التي حملت أعجب الصور، وجمعوا كذلك آلات التسجيل بسجلاتها فيما يختص بالجاذبية وظواهر فضائية أخرى.

وسيظل العلماء مشغولين بفحص كل هذه الثروة العلمية عدة أسابيع، قد تمتد إلى أشهر. كشوف تزيد علم الإنسان بالقمر، كيف نشأ، ومن أي شيء نشأ. وتكشف لنا عن تلك الفوهات التي بسطحه.



في أول دورة لهم حول القمر، نظر رجال الفضاء فإذا أفق القمر طويل عريض أمامهم، وإذا الأرض تراءت لهم في السماء، وقد أنـارت الشمس (ليست في الصورة) نصفها، وأظلم نصف. وكـانت هذه الأرض منهم على بعد نحو ربع مليون ميل في الفضاء البعيد. فصوروا هذا المنظر الفريد. وأي منظر!.



صورة للأرض أخذها رجال الفضاء وهم يدورون حول القمر، وقد بدت الأرض تظهر فوق الأفق القمري، مشرقة تماماً كما يشرق القمر لأهل الأرض.



صورة أخذها رجال الفضاء للأرض، وهم في طريق عودتهم إليها من القمر.

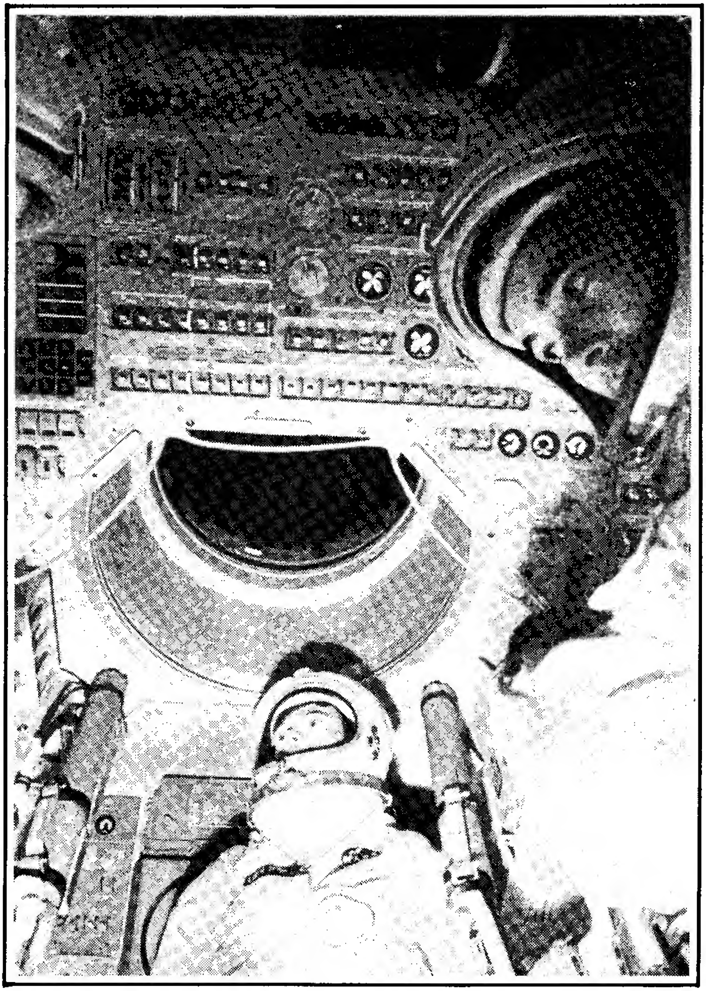
حجرة القيادة

حجرة القيادة Command Module وهي جزء من المركبة الفضائية أبولو ٨، هي الحجرة الأساسية التي يعمل فيها رواد الفضاء الثلاثة، ويعيشون فيها وينامون ويستيقظون، وهي تتألف بأجهزتها من نحو مليوني قطعة لها وظيفة تعملها. وللمقارنة نذكر أن السيارة المتوسطة بها نحو ٣٠٠٠ قطعة.

وحجرة القيادة شكلها مخروطي ارتفاعها ١٨, ٣ متراً وقطرها ٣,٨٥ متراً. وإذا قسمنا حيزها الداخلي بين الرجال الثلاثة لنال كل منهم ٢,٠٦٧ متراً مكعباً.

وجدار حجرة القيادة بطانتها الأجهزة الكثيرة، وبها نحو ٥٠٦ مفتاح يصل شيئاً أو يقطع شيئاً.

وحجرة القيادة هي الشيء الوحيد من المركبة الفضائية الذي يعود إلى الأرض بعد ختام الرحلة.



رجال الفضاء الثلاثة وهم في حجرة القيادة جميعاً، في مركبة الفضاء أبولو رقم ٨ .

الصاروخ ساترن
ومن فوقه مركبة الفضاء

والصاروخ ساترن الخامس Saturn 5 (أو زحل ٥) هو، كما سبق أن ذكرنا، أقوى صاروخ في العالم. ويبلغ طوله مع طول المركبة التي حملها كاملة ١١٠ من الأمتار، فهو كطول العمارة السكنية التي بها نحو ٣٠ طابقاً. ووزنهما معاً يبلغ أكثر من ٢,٨ مليون كيلو جرام، وهذا يعادل وزن نحو ٢٠٠٠ سيارة.

والصاروخ في الثواني المائة والخمسين الأولى من انطلاقه يستهلك من الوقود ١٥ طناً في الثانية الواحدة، يحدث بها قوة دفع مقدارها ٣٧٥٠ طناً.

والصاروخ، ٩٥ في المائة من وزنه من الوقود السائل.

عدد العلماء والفنيين
الذين عملوا لهذه الغاية

لقد مضت عشر سنوات قضتها الولايات المتحدة في صنع مركبة الفضاء القمرية هذه حتى بلغت بها ما بلغت.

وقد اشتغل في بنائها نحو ٣٥٠٠٠٠ عالم ومهندس وفني وغيرهم، استخدمتهم شركات مختلفة بلغ عددها أكثر من

٢٠٠٠٠، عملت في تصميم وبناء الصاروخ، والمركبة الفضائية والأجهزة الملحقة بها.

رحلة أبولو رقم ٩

هذه الرحلة، التي تمت في منتصف شهر مارس الماضي، لم تخرج عن نطاق الأرض. كانت رحلة تمهيدية يجرب فيها رجال الفضاء ما سوف يعتزمون إجراءه في رحلة لهم إلى القمر قادمة، ينزلون فيها إلى سطح القمر نزولاً.

والخطة التي يعتزمون اتباعها في رحلة القمر التي ينزل فيها الرجال إلى سطح القمر أن يكون لمركبة الفضاء حجرتان، حجرة القيادة التي وصفناها، وحجرة قمرية، وكلتاهما تصل إلى القمر مربوطة بالأخرى.

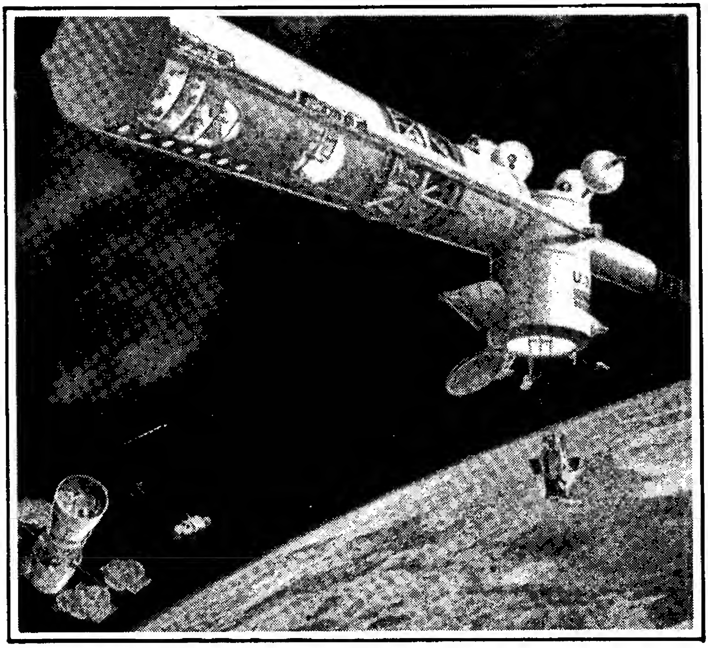
أما حجرة القيادة فتطوف بالقمر ولا تهبط. وأما الحجرة القمرية فتنفصل عن حجرة القيادة وتهبط. ثم يعود بها رجلها أو رجالها إلى حجرة القيادة الطوافة بالقمر.

والصعوبة الفنية الكبرى في هذا الإجراء هو فصل الحجرتين، ثم وصلهما.

وكانت رحلة أبولو رقم ٩ لتجربة هذا الفصل والوصل، لا في فلك القمر، ولكن في فلك الأرض. والصعوبة في الفلكين إن لم تكن واحدة، فهي متشابهة.

وهذا على كل حال سوف يجري مكتملاً ناجحاً، في الرحلة الأخيرة، عندما ينزل الرجال إلى القمر، ثم هم بحجرة القيادة وحدها يعودون إلى الأرض.

والمنتظر أن يتم هذا الحدث الأكبر في شهر مايو هذا.

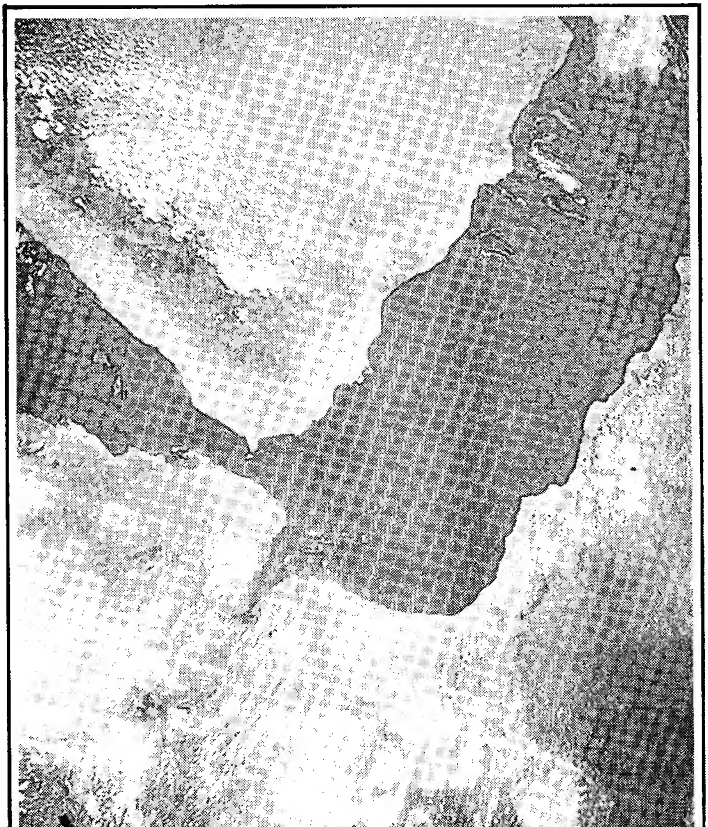


محطة الفضاء في الغد، كما تخيلها الرسام.



صورة للكرة الأرضية التقطها أحد رواد الفضاء خلال إحدى الرحلات الفضائية. وتبدو فيها شبه الجزيرة العربية والقارة الإفريقية وجزء من شبه القارة الهندية وكذلك جزء من القارة المتجمدة الجنوبية.

(مجلة القافلة العدد الخامس جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ)



صورة فضائية التقطت بواسطة القمر الصناعي لجنوب الجزيرة العربية والقرن الإفريقي.

(مجلة القافلة العدد الخامس ١٤٠٩ هـ).



صورة فضائية رقمية بواسطة قمر لاندسات لمنطقة كراتشي بالباكستان، ويبدو فيها التركيب العمراني وبعض المظاهر الجيولوجية والزراعية.

خاتمة البحث
وماذا بعد الوصول إلى القمر؟

لقد استطاع الإنسان أن يدور حول الأرض، ويخرج عن نطاق الجاذبية الأرضية، ويجول في آفاق السماء، ويرسل المراكب الفضائية إلى بعض الكواكب والنجوم، وأن يصل إلى القمر، ويجلس على سطحه، ويأتي بشيء من تربته وحجارته، ثم يعود إلى الأرض سالماً في نشوة وغرور، فماذا بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة؟.

هل أحاط الناس بالكون، وعرفوا أسراره ودقائقه؟.

هل سخَّروا هذه العلوم والمعارف لخدمة البشرية وسعادتها؟

هل عرفوا عظمة هذا الخالق المبدع لهذه الكائنات؟.

لا، لا، إنهم لم يعرفوا من هذا الكون إلَّا نقطةً من بحرٍ خضم.. لم يروا من آثار عظمة اللّه إلَّا هذا القمر، الذي هو كالذرَّة بالنسبة لبعض النجوم والكواكب، وليست الشمس والقمر والكواكب التابعة للشمس، إلَّا كحبَّاتٍ، أو حصيات انتثرت في صحراء واسعة شاسعة بالنسبة لبعض النجوم والمجرات، التي تبعد عنا مئات السنين الضوئية.

لقد عرف الناس المخلوق، ولكنهم أضاعوا الخالق جلَّ وعلا، رأوا أثر الإبداع في الخلق والصنعة، ولكنهم جهلوا عظمة المبدع الصانع ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ماذا جنت البشرية من وراء هذا الحدث الهام «الوصول إلى القمر»؟ وما هي الحصيلة التي استفادتها الإنسانية من جراء غزو الفضاء؟ هل قضوا فيها على الفقر؟ هل أبعدوا شبح الحروب عن سكان الأرض؟ هل استطاعوا أن يحققوا للبشرية السعادة والرفاهية، ليعيشوا على ظهر هذا الكوكب الأرضي، إخوةً متعاونين متحابين في السراء والضراء؟!.

أم إن هذه الرحلات والاكتشافات للتجسس، والتسابق لصنع الأسلحة الفتاكة، والصواريخ عابرات الفضاء، لتدمير آخر ما تبقّى من مظاهر العمران، وما سخَّره اللّه للإنسان من أنواع الخيرات، وصنوف المخلوقات، في هذه الأرض المنكوبة!!.

علومهم سرابٌ وخداع

إن الإنسان ليحار أمام هذه المخترعات والمكتشفات المدهشة كيف مكَّن اللّه جلَّ وعلا لبعض البشر، من ارتياد آفاق السماء، وهم على ما هم عليه من العدوان والطغيان،

والتنكر لآيات الرحمن؟ كيف أمكن لمثل روسيا مثلاً أن ترسل أول رائدٍ للفضاء، فيدور حول الأرض، ويعلو في أجواء السماء، ويقترب من القمر، وهي دولة تنكر وجود اللّه، ولا تعترف بدين، ولا تؤمن برسالة أحدٍ من الأنبياء؟.

والحقيقة التي أخبرنا عنها القرآن، أن هؤلاء الغافلين عن اللّه، المنكرين لوجوده، علومهم سراب وخداع، يعلمون من علوم الكون أشياء جزئية، وقشوراً سطحية، لا تسمن ولا تغني من جوع، فقد اكتفوا عن اللباب بالقشور، وداخلهم بهذه العلوم الغرور، فظنوا أنهم قد قهروا الطبيعة، وغزوا الفضاء، ووصلوا إلى معارف وعلوم عجز عنها الأوائل، ونحن نقول لهؤلاء المخدوعين ما قاله الشاعر:

عُلومُ الأرضِ لم تصلوا إليها
فكيفَ بكم إلى علم السماء؟

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الماديين الطبيعيِّين فقال تقدست أسماؤه: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [1]... نعم، إنها واللّهِ الحقيقةُ الملموسة، التي تكشف لنا عن جوانب الروعة في تعبير القرآن، وفي أسراره الدقيقة الحكيمة، فإن اللّه تعالى قد أخبرنا عن علومهم ومكتشفاتهم في جزء من هذه الآية الكريمة، أنهم يعلمون

---

(١) سورة الروم الآية ٧.

من الحياة ظواهرها، ويجهلون دقائقها وأسرارها. . يعلمون الصورة ويجهلون الحقيقة. . يعلمـون القشرة ويجهلون اللب.

فما هذه العلوم التي يعرفونها، وما هذه الفنون التي يتقنونها، إلا من القشور التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فعلومهم سطحية تتعلق بظواهر الحياة. . ولا تتعمق سننها الثابتة، وقوانينها الأصيلة، ولا تدرك من نواميس الطبيعة إلا هذه الصورة الباهتة من صور المعرفة والمشاهدة.

إنها واللّه قشور، قد يغتر بها الجهول، فيظن أنها سر الكون، أو إكسير الحياة، مع أنها حقيرة، تافهة، لا تستحق أن يقضي الإنسان حياته من أجلها. . . أو يفني شبابه في سبيل الحصول عليها. . . وهل الحياة طعام وشراب وشهوة، أم هي أعز وأرفع من الطعام والشهوة والشراب؟.

حضارة الغرب مادية

نحن لا نشك أن أوربا قد خطت خطوات جبارة في ميدان الاختـراع والصنـاعـة. . وفـاقت الشعـوب والأمم في المكتشفات والمخترعات، وفي أسباب الـرقي المادي، والتقدم الصناعي. . ولكن خطوتها لم تكن إلا خطوة في سبيل المادة، وفي خدمة الجسم والبدن. . فحضارة الغرب اليوم هي حضارة مادية بحتة، لا تعدو فنون الصناعة،

وأساليب العمران، وطرق التنمية والتصنيع، وضروب الفتك والتدمير.

إنها حضارة مادية، تخدم الجسم، وتتنكر للروح، وتؤمن بالمادية، وتكفر بالروحانية، وتقدس الإنسان، وتجحد بالرحمن.

وحقاً إنها لنكسة البشرية، وانزلاق الإنسانية، من قمة المجد والسؤدد، إلى حضيض الذل والهوان.. وعودة بالإنسانية إلى جحيم الشقاء والدمار، الذي خلَّفته حضارة القرن العشرين.

إيهِ عصرَ العشرينَ ظنُّوكَ عصراً
نَيِّرَ الوجهِ مُسْعِدَ الإنسانِ
لستَ نوراً، بلْ أنتَ نارٌ وظلمٌ
مذْ جَعَلْتَ الإنسانَ كالحيوانِ
مَنْ تُرَى حقَّقَ العدالةَ لمَّا
سَادَ حُكْمُ الغاباتِ في الإنسانِ؟
من تُرَى أخرَجَ العوالمَ لمَّا
أوصلتْهَا الفَوْضَى لكلِّ هَوَانِ؟
إنَّ دينَ الإسلامَ مجْدٌ، وعِلْمٌ
وهو تَاجُ لأقْدَسِ الأديانِ[1]

---

(١) من قصيدة للمرحوم الشيخ محمد الحموي ألقيت بدار المعلمين بحلب في ذكرى مولد الرسول ﷺ.

لقد تقدمت أوربا وأمريكا ودول شرق آسيا في المكتشفات والمخترعات، وقطعت أشواطاً بعيدة في مضمار التطور والتصنيع، ووصلت إلى ما كانت تحلم إليه من رقي، وتقدم، وازدهار.

وتقدمت روسيا كذلك في أسباب النهضة العمرانية، والتطور الصناعي، والكشف، والاختراع، والابتكار، حتى استطاعت أن تغزو الفضاء، وتسخر الهواء، وتخضع لسيطرتها أكثر أمم الأرض، بل وأقواها وأعتاها..

ولكن أوربا وروسيا وغيرهما قد أخفقت في مضمار الازدهار الروحي، والتقدم الحقيقي، وفي انتشال (الإنسانية) من براثن الهمجية والوحشية، التي فرضتها عليها الحضارة المزيفة، (حضارة القرن العشرين):

لقد أصبحت الحياة ظلاماً وقتاماً، واستحالت الدنيا جحيماً وبركاناً.. وأضحت البشرية مهددة بالفناء، بسبب تلك المخترعات المدمرة، والوسائل الخطرة، التي أنتجتها عبقرية الإنسان المادية وحضارته التي لا تؤمن إلا بالمتاع، والشهوة، والجسد.

إن أوربا اليوم ومن لفَّ لفَّها المفتونة بماديتها، المجنونة بمكتشفات عقولها، هي في أمس الحاجة إلى الدواء والعلاج، لتستعيد إنسانيتها، وتعرف حقيقة وجودها،

فتنصرف إلى اختراع ما يعود بالنفع على بني الإنسان، فتسعد هي وتسعد غيرها معها، وبذلك تكون جهودها جهوداً مشكورة في سبيل خدمة الإنسانية، وتحقيق السعادة لجميع الشعوب والأمم.

سُنن كونيّة لا تتغيّر

والحقيقة التي لفت أنظارنا إليها القرآن الكريم، هي حقيقة جديرة بالتأمل والتفكير، ينبغي ألا يغفل عنها الإنسان، وهي أن للّه عز وجل في هذا الكون سنناً لا تتبدل، وقوانين لا تتغير، فهو جل وعلا يعطي للمجدِّ، ما لا يعطيه للخامل، ويمنح العامل ما لا يمنحه للعاطل... فمن جدَّ وجد، ومن سار على الدرب وصل ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(1).

فالأمة التي تجدُّ وتكدح، وتسعى وتعمل وتبحث وتنقِّب، هي الأمة التي ترتقي في هذه الحياة الدنيوية، وتصل إلى مبتغاها المنشود.

وأمم الغرب والشرق على السواء، قد نهضت في هذه الأيام، وخطت خطوات جبارة، بهمة لا تعرف الملل،

---

(1) سورة الأحزاب الآية ٦٢.

وعزيمة لا تعرف التواني، فقامت بالبناء والتعمير، والتخطيط والتصنيع، والكشف والاختراع فسبقت بذلك أمم الأرض.

ولكن المؤسف والمؤلم أن تكون هذه النهضة الحديثة ـ نهضة مادية ـ لا تواكب حاجة الإنسانية، ولا تحقق الهدف المنشود، ولا تسمو بالأفراد والجماعات، إلى حياة العزة، والكرامة، والسعادة التي أرادها اللّه لبني الإنسان.. بل تكون غايتها مادية محضة، تهدف إلى خدمة الجسد، وترفيه البدن، وإشباع رغبات الإنسان وشهواته، عن طريق التمتع بمباهج الحياة الدنيا وزينتها الفانية.

وهنا سؤال يفرض نفسه علينا وهو: هل الإنسان جسد خاو، أم هو مزيج من الجسد والروح؟.

هل هو بحواسه وأعضائه، أم بروحه وقلبه وضميره؟!.

ولماذا كرم اللّه الإنسان، وفضَّله على سائر المخلوقات؟ ألضخامة جسمه؟ أم لجمال شكله؟ أم لأنه فاق بعقله جميع المخلوقات؟ وصدق اللّه حيث يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١).

وهل السعادة بإشباع البطن، وإرواء الشهوة، وخدمة الجسد!؟ وما أجمل قول القائل:

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

يـــا خــادم الجسم كم تسعى لخـــدمتـــه
أتـــطلبُ الـــرِّبْـــحَ فيمـــا فيـــهِ خســـران؟
أقبـلْ على النفس واستكمِـلْ فضَـــائِلَهـا:
فـــأنتَ (بـالـــروح) لا (بـالجسم) إنســـانُ
وكن على الـــدهـــر معـــواناً لـــذي أمـل
يـــرجـــو نَـــدَاك فـــإن الـــحـــرَّ مِـــعْـــوانُ

الاغـتـرار بالرقي المادي

ومن طبيعة الإنسان التمرد على اللّه، والتكذيب برسله وآياته.. والاغترار بما وصل إليه من كشف علمي، ورقي مادي.. وقد جرت سنة اللّه في الكون أن يمد اللّه للإنسان ويستدرجه، ولا يعاجله بالعقوبة حتى إذا ما وصل إلى ذروة ـ الانتصار العلمي ـ وأخذته نشوة الاختراع والاكتشاف، أنزل اللّه به العذاب، وصدق اللّه حيث يقول: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾(١).

فلا ينبغي إذاً للإنسان أن يشك في قدرة اللّه على الانتقام

(١) سورة الأنعام الآيتان ٤٤ ـ ٤٥.

ممَّن جحد بآياته، وكذب برسله وأنبيائه، واغتر بما وصل إليه من كشف ورقي، وانتصار علمي، فإن من سنن اللّه الأزلية، أن ـ يمهل ولا يهمل ـ وأن يسير بالمتمرد العاصي في طريق الاستدراج، حتى إذا أخذه اللّه بذنبه، أخذه أخذ عزيز مقتدر، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(١).

وهكذا يمد اللّه للعصاة، ويفتح عليهم في أسباب هذه الحيـاة.. في العلم.. والصناعـة.. والاكتشـاف.. والاختراع.. وفي كل شيء من أسس الحياة المادية التي هي مظهر التقدم والرقي.. وهذا هو السـر في عظمـة التصوير، وروعة التعبير في الآية الكريمة السابقة:

﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

إن قاصر النظر، ضعيف الإدراك، قد يظن أن هذا الانتصار العلمي، والاختراع والاكتشاف، الذي توصلت إليه هذه الأمم، هو نوع من إكرام اللّه عز وجل لتلك الأمم الباغية الكافرة، مع أن ذلك ليس إلا ابتلاءً من اللّه، واستدراجاً لعباده، كما قال سبحانه:

---

(١) سورة هود الآية ١٠٢.

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

وهذا الظفر والانتصار ما هو في الحقيقة إلا نوع من الغرور، ومقدمة لأخذ اللّه تعالى لهم بعد ذلك الفرح والبطر، والشعور بنشوة الظفر والانتصار، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[2].

قال الحسن البصري رحمه اللّه: «مُكِرَ بالقوم وربِّ الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا».

وهذه من سنن اللّه الكونية.. وقد حذرنا الباري جل وعلا من الاغترار، بما عليه الكفار، من القوة، والثروة، والمتاع، والنعيم، وبيَّن لنا في آيات عديدة أن ذلك المتاع إنما هو عارض موقت، ينقضي مع انقضاء هذه الحياة، قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة القلم الآيتان ٤٤ ـ ٤٥.
(٢) سورة غافر الآيات ٨٣ ـ ٨٥.
(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٩٦ ـ ١٩٧.

وقال تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1] .

العلم نصير الإيمان

والعلم لا يزال وليداً يحبو . . . وطفلاً لم يتكامل نموُّه بعد . . ولا بد أن يأتي يوم يبلغ فيه سن الرشد . . وحينئذ يصل العلم إلى قمة الكمال، وأوج المعرفة . . ويصبح العلم نصيراً للإيمان، ويدرك الإنسان سر هذه الحياة، وغاية هذا الوجود مصداقاً لقول اللّه العلي الكبير:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ سورة فصِّلت .

سعة الكون وامتداده

ثبت أن الكرة الأرضية هي أحد أفراد المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية كلُّها بالنسبة إلى هذا الكون الواسع، أقلُّ بكثيرٍ من نسبة قطرة الماء إلى مياه المحيطات كلِّها، فالكون عظيمٌ فسيحٌ، ممتدُّ الأرجاء، لا يعلم مداه وسعته إلّا اللّهُ ربُّ العزة والجلال، خالق الإنسان ومبدع

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٥ .

الأكوان، ولعلنا إذا أمعنَّا النظر في قول الحقِّ جلَّ وعلا: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ - أي بقوة عظيمة - ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(١) نتصوَّر مدى سعة هذا الكون، الذي يدهش الأفكار، ويحيِّر العقول، وندرك عند ذلك سرَّ قسم الباري جلَّ جلاله بمواقع النجوم - أي مداراتها وأفلاكها - في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(٢) فمهما تخيَّل الإنسان وتصوَّر بذهنه، سعة هذا الكون وامتداده، وكثرة ما فيه من النجوم والكواكب والمجرَّات، وما بين هذه النجوم من المسافات الشاسعة البعيدة، فإنه لم يدرك من الحقيقة إلَّا الشيء اليسير الذي لا يكاد يُذكر، كحصيات في صحراء ممتدة، شاسعة الأبعاد، لا يُعرف لها بداية ولا نهاية.

لقد أخبر رواد الفضاء في رحلتهم، أنهم رأوا الكرة الأرضية وهم على سطح القمر، وكأنها جسم كروي صغير، ومن المعروف أن القمر - وهو أقرب الأجرام السماوية لنا - أصغر من الأرض بخمسين مرة تقريباً، ويبعد عنا مسافة /٣٨٤/ ألف كيلومتر، أما الشمس فهي من حيث الحجم، أكبر من الأرض بما يزيد على مليون مرة، والمسافة بيننا وبين

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٧.
(٢) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ - ٧٦.

الشمس هي حوالي /١٤٩/مليون كيلومتراً، ومع كبر الشمس وضخامتها فإننا نراها أكبر من القمر بقليل، وذلك لبعدها الشاسع عن الأرض، تُرى هل نرى القمر لو كان يبعد عن الكرة الأرضية هذه المسافة؟ قطعاً سوف لا نراه إلا بواسطة «التلسكوب» المنظار المكبِّر، وكذلك الحال بالنسبة للكرة الأرضية، ستبدو في الفضاء من مسافة تبعد ملايين الكيلومترات وكأنها زرٌّ صغير، لا يكاد يُرى بالعين المجردة، فكيف يكون الحال بالنسبة للأجرام السماوية التي تبعد عنا مسافات تُقاس بالسنوات الضوئية؟.

لا شك أن تلك الأجرام في غاية الضخامة والعِظم، من حيث الحجم، ولكنها تُرى صغيرة لبعدها الساحق.

ويتألف الكون مما يلي:

١ ـ المجرات.
٢ ـ النجوم.
٣ ـ الكواكب.
٤ ـ المذنّبات.
٥ ـ الشُّهب.

وكلُّ هذه دون السماء الأولى، تتحرك في هذا الفضاء الواسع، بقدرة العلي الكبير.

الشمس تسير بتقدير العزيز الخبير

تعتبر الشمس مركز المجموعة الشمسية، وكان الناس في الماضي يعتقدون أن الأرض ثابتة وأن الشمس تدور حولها، ولكنَّ العلم أثبت أن الأرض وجميع أفراد المجموعة الشمسية هي التي تدور حول الشمس، والشمس ليست ثابتة، بل هي وما يتبعها من أفراد مجموعتها، كلُّها مجتمعة تسبح في الفضاء، تدور بقدرة الخلاَّق بنظام دقيق محكم، دون أن يرتطم أو يصطدم شيء منها بآخر، وهذه النظرية الحديثة من دوران جميع الأفلاك، بما فيها الشمس، والقمر، والأرض، والنجوم، والكواكب، هي التي تتفق مع الحقائق القطعية التي قررها القرآن، فكتاب الله هو الحَكَمُ وهو الفاصل في هذه الأمور، لأنه كلام الخالق الحكيم، خالق الأكوان ومنزل القرآن، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

ومن أهم ما يلفت النظر أن الكرة الأرضية في أثناء دورانها حول الشمس، يكون بعدُها عنها في فصل الشتاء أقلَّ بمقدار يقارب خمسة ملايين كيلومتراً عن بُعدها عنها في فصل

---

(١) سورة يٓس الآيات ٣٨ ـ ٤٠.

الصيف، والنقطة التي يكون فيها كوكب الأرض بعيداً عن الشمس يقال لها: «نقطة الذَّنَب» وأقرب نقطة تصل إليها الأرض أثناء دورانها حول الشمس يُقال لها: «نقطةُ الرأس» ويرجع السبب في انخفاض حرارة الشمس في الشتاء، إلى أن أشعة الشمس تصل إلينا مائلة لا عمودية، وتبلغ جاذبية سطح الشمس ما يعادل /٨٠/ ثمانين ضعف جاذبية الأرض كما يقول علماء الكون والفلك.

وبعـد: فهذا الكتاب المعجز الذي أخبر عن هذه الحقائق العلمية الدقيقة، جاء به نبيٌّ أميٌّ، لم يتلقَّ علماً في مدرسة، ولا تتلمذ على أستاذ، ولا يعرف حتى أواخر حياته أن يخطَّ رسالة، أو يقرأ كتاباً، من أين عرف هذه الدقائق الكونية، لو لم يوح له بها ربُّ العزة والجلال!؟.

ولا يزال الزمان يكشف لنا عن بعض غوامض أسرار الكون، وأسرار النفس البشرية، لتتحقق معجزة القرآن ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[1].

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

تم بعونه تعالى الكتاب

مكة المكرمة ـ غرة شهر رمضان ١٤١٠ هـ

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان ١٠٥ ـ ١٠٦.

الفهرس